

د . محمد الجوادي

باريس الرائعة

الزهور و النور و العطور







هذا الكتاب

ليست هذه الفصول تعريفا بباريس، ولا تقديما لها، وإنما هى أقرب إلى الغزل فيها، والتشبيب بها، والفخر بمعرفتها.

وما هذه الفصول إلا سطور كتبها واحد من الطابور الطويل للمعجبين بباريس لينضم إلى الطابور القصير من الذين سجلوا هذا الإعجاب على الورق، واستحوذ بعضهم بفضل مثل هذه السطور على مكانة بين العشاق المعروفين على مدى تاريخ هذه الساحرة العطوفة التى تبدت فى ثياب مدينة جميلة.

وما بين هذين الطابورين فإن هناك من العشاق قومًا كثرًا يفوق عشقهم عشق رجال الطابور القصير، لكنهم فضلوا له أن يظل حبهم عفيفا أليفا، يسعدهم هم وحدهم ويستحوذون عليه.

سوف يقرأ كثيرون فى هذه الفصول ما يعرفون أكثر منه، وسوف يقرأ آخرون ما يعرف أن بعضه فحسب، وسوف تعجب طائفة ثالثة مما كان أمامهم ولم يدركوا دلالاته أو علاقاته، أو ما وراءه، لكن أحدا لن يتنازل عما أحبه من قبل، ولا عن أسلوبه فى عشقه لما أحب.

هذا هو الكتاب الأول من ثلاثة عن باريس، وفى هذا الكتاب كما يدل عنوانه تحليل لروعة باريس من حيث هى مدينة المشاعر ومدينة العواطف ومدينة النور ومدينة التنوير ومدينة العطور ومدينة الإيحاء.

وأحب أن أعترف أننى كتبت هذا الكتاب وأبوابه على مدى عشرين عاما، وأحب أن أعترف أنى أعدت كتابته وصياغته أكثر من ثلاثين مرة، وأحب أيضا أن أعترف أن تجاربه المطبعية فى المرة الأخيرة وحدها تجاوزت ثلاثين تجربة، ومع هذا فإنى أتصوره أقل من أن يكون قد بذل فيه كل هذا الجهد.

باريس الرائعة

الزهور و النور و العطور

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م



٩٧ شارع المتنزه ـ ميدان ألف مسكن ـ مصر الجديدة

تليفون وفاكس : ٢٦٣٧٣٢٧٢ ـ ٠١٠٠١٦٣٣٧١٨ ـ ٢٦٣٧٤٢٧٣

Email: <shoroukintl@hotmail.com>

http://shoroukintl.com

د. محمد الجوادى

باريس الرائعة

الزهور و النور و العطور



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

الجوادى، محمد.
باريس الرائعة: الزهور والنور والعطور/ محمد الجوادى.
ط١. ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤م.
١١٢ص؛ ٢٤سم.
تدمك 978-977-701-131-0
١ ـ باريس (فرنسا).
٢ ـ باريس (فرنسا) ـ وصف ورحلات.
أ ـ العنوان ٩١٤,٤٣٦١

رقم الإيداع ٢٥٢٩١/ ٢٠١٤م
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 701 - 13 - 10

إهـــداء

إلى فتى نقى ذكى واعد أدعو الله أن يطيل عمره ويحسن عمله

كانت باريس أول ما رآه حين كان لا يزال فى الخامسة

وقد عرف فيها المتعة والبهجة ثم القلق والمشقة

هذا الكتاب

ليست هذه الفصول تعريفا بباريس، ولا تقديما لها، وإنما هى أقرب إلى الغزل فيها، والتشبيب بها، والفخر بمعرفتها.

وما هذه الفصول إلا سطور كتبها واحد من الطابور الطويل للمعجبين بباريس لينضم إلى الطابور القصير من الذين سجلوا هذا الإعجاب على الورق، واستحوذ بعضهم بفضل مثل هذه السطور على مكانة بين العشاق المعروفين على مدى تاريخ هذه الساحرة العطوفة التى تبدت فى ثياب مدينة جميلة.

وما بين هذين الطابورين فإن هناك من العشاق قومًا كثرًا يفوق عشقهم عشق رجال الطابور القصير، لكنهم فضلوا له أن يظل حبهم عفيفا أليفا، يسعدهم هم وحدهم ويستحوذون عليه.

سوف يقرأ كثيرون فى هذه الفصول ما يعرفون أكثر منه، وسوف يقرأ آخرون ما يعرفون بعضه فحسب، وسوف تعجب طائفة ثالثة مما كان أمامهم ولم يدركوا دلالاته أو علاقاته، أو ما وراءه، لكن أحدا لن يتنازل عما أحبه من قبل، ولا عن أسلوبه فى عشقه لما أحب.

هذا هو الكتاب الأول من ثلاثة عن باريس، وفى هذا الكتاب كما يدل عنوانه تحليل لروعة باريس من حيث هى مدينة المشاعر ومدينة العواطف ومدينة النور ومدينة التنوير ومدينة العطور ومدينة الإيحاء.

وأحب أن أعترف أننى كتبت هذا الكتاب وأبوابه على مدى عشرين عاما، وأحب أن أعترف أنى أعدت كتابته وصياغته أكثر من ثلاثين مرة، وأحب أيضا أن أعترف أن تجاربه المطبعية فى المرة الأخيرة وحدها تجاوزت ثلاثين تجربة، ومع هذا فإنى أتصوره أقل من أن يكون قد بذل فيه كل هذا الجهد.

وإنى أدعو الله -سبحانه وتعالى- أن أكون قد أديت بهذا الذى كتبت بعض واجبى تجاه أبناء

وطنى، وأن يجد بعضهم بعض الفائدة فيها يقرؤون، وأن يجد البعض الآخر بعض المتعة فيها يطالعون، وأن نعيش حتى نرى فى وطننا كثيرا مما يستحق الفخر والإعجاب والتقليد.

وكلى أمل أيضا أن يسهم هذا الكتاب أيضا فى تنمية وعينا بمشكلاتنا وحاضرنا واقتصادنا وتنميتنا وهياكلنا وعيوبنا وأخطائنا وآمالنا وأحلامنا وتطلعاتنا.

والله -سبحانه وتعالى- أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه، وإن كنت أعلم عن نفسى أنى لا أخلو من الرياء فى كل ما أفعل.

والله -سبحانه وتعالى- أسأل أن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم علىّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيهان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله -سبحانه وتعالى- أسأل أن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يحفظ علىّ عقلى وذاكرتى، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى.

والله -سبحانه وتعالى- أسأل أن يذهب عنى ما أشكو من ألم وتعب، ووصب وقلق، وأن يهبنى الشفاء والصحة والعافية، وأن يقيلنى من مرضى، وأن يعفو عنى، وأن يغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر. وأن يحسن ختامى، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه.

والله -سبحانه وتعالى- أسأل أن يعيننى على نفسى وأن يكفينى شرها، وشر الناس، وأن يوفقنى لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعنى بها علمنى، وأن يعلمنى ما ينفعنى، وأن يمكننى من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذى منحنى العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول وهو -جلّ جلاله- الذى هدانى، ووفقنى، وأكرمنى، ونعّمنى، وحبب فىّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتى وهى ـ بالطبع وبالتأكيد ـ كثيرة ومتواترة ومتنامية فله -سبحانه وتعالى ـ وحده الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

د. محمد الجوادى

الباب الأول

باريس اليوم

(١)

ليس فى وسع باريس أن تجعل كل أهلها سعداء بها، ذلك أن السعادة العابرة التى نعيشها ونحسها ونحن نزور باريس ليست مددًا لا ينقطع، وليست طاقة تتجدد، لكنها فى واقع الأمر محصلة اجتهاد وشقاء وجدٍّ فى سبيلها، وليس من السهل على كل مَنْ يشارك فى صنع السعادة أن يشعر هو الآخر بها، فالنفس البشرية ملولة بطبعها، والنفس البشرية تستكثر على غيرها أن يستمتع بما شقيت هى فيه، وهكذا فإن فى وسعك أن تتصور هؤلاء الذين هيؤوا لك كل هذه السعادة الباريسية وهم راضون بما كسبوا من ورائك، لكنك لا تستطيع أن تجزم بأنهم سعداء بما فعلوا، أو أنهم سعداء بسعادتك، ربما يسعدون لأنهم نجحوا فى أداء وظيفة، لكن سعادتهم بأنفسهم قد تقف عند حدود، ولهذا فإنك ترى أناسا كثيرين يعيشون فى باريس وهم ضجرون متضجرون، وتسألهم: أما يكفيهم أنهم يعيشون فى باريس، فإذا هم يخبرونك بكل صراحة بأنهم يعرفون قيمة هذه الجنة التى يعيشون فيها، لكنهم يظنون أنفسهم مستحقين لاستمتاع أكثر بالجنة.

ولهذا فإنك تستطيع أن تتوقع من الباريسيين حالات من الإحباط، وحالات من العنف، وحالات من القتل المبرر، وحالات من الجريمة المنظمة، وأنت تسمع تفصيلات هذا كله وتمصمص شفاهك على هؤلاء الذين تجبرهم جيناتهم البشرية التى ورثوها من لدن آدم - عليه السلام - على أن يخرجوا أنفسهم بأنفسهم من الجنة!

لكنك تعود وتقول: إن باريس هى الجنة الجانية على هؤلاء جميعا، إنها تدفعهم دفعًا إلى هذا

السلوك الذى يجعلهم ينتقمون من أنفسهم، أو يظلمون هذه الأنفس، بينما تفيد باريس نفسها من هذا الجو الذى يخلى الضعفاء من طريقها ومن طرقاتها ويستبقى لها الأقوياء القادرين عليها، وعلى حياتها، وعلى متطلباتها.

كأنى بك تريد أن تقول: إن باريس الحسناء تشبه قطة جميلة لكنها شأن القطط تأكل بعض بنيها فى لحظات فاصلة، وأنا أوافقك على مثل هذا التشبيه الصادق، وإن لم يكن جميلًا فى حق هذه القطة الجميلة.

وأعود لأقول لك باختصار شديد: إن باريس جنة جانية، وليست جنة حانية.

(٢)

لا يمل الإنسان من باريس.

هل لأنه يرى جديدا فيها كل يوم..

أم أن ما فيها يحتاج من الأيام ضعف ما هو متاح من أيام فى عمر الإنسان؟

هذا صحيح، وهذا صحيح، لكن هذا لا ينفى حقيقة أخرى، وهى أن الإنسان لن يكف عن التأمل فيما فعله الباريسيون والفرنسيون من أجل فرنسا، فعنايتهم بكل شىء حتى يبدو جميلا وساحرا تلفت النظر، وتجعل الطموحين إلى التقدم والرقى يتأملون عن كثب أسلوب هؤلاء القوم فى ترقية مدينتهم كى تكون على هذا النحو الذى هى عليه.

أضرب لك مثلا واحدا بهذه الإطارات الحديدية التى تحيط بالأشجار عند خروجها من أرصفة الطرق بحيث تعطيها إطارًا جميلًا، وفرصة للرى الدورى، هذه الحدائد الكبيرة الثقيلة مصممة بحيث تتيح لساق الشجرة أن يخرج من خلالها، بينما الحديد الصلب يحمى الساق من كل جانب، تتأمل هذا الحديد فتجد الباريسيين قد شكلوه على هيئة هندسية جميلة، ثم تتأمل هذا الحديد فتجده أصيلا ثقيلا، كبير الحجم، متميز الكيان، ثم تتأمله وأنت تستحضر أزمات مصر المفتعلة فتجد أنه يصعب على أحد أن يرفعه من مكانه ليأخذه بعيدا إلى حيث يعاد صهره على نحو ما يفعل الناس فى بلادنا تحت إلحاح مصانع الصلب على إعادة استخدام وتصنيع الحديد القديم!!

(٣)

هل كان أرنست همنجواى مصيبا حين قال: إن باريس وليمة فاخرة؟

أعتقد أن همنجواى لم يف باريس حقها، ذلك أن باريس أكبر بكثير من أن تكون وليمة فاخرة، لأسباب عديدة، أولا: هى باقية، ولا تنتهى بانتهاء الطعام على نحو ما تنتهى الوجبات، وثانيا: فإنها تتطلب من الحواس أكثر بكثير مما يحتاج إليه الطعام الجيد.. إنها تتطلب السمع والبصر والفؤاد، وتتطلب أيضا أن تلمس كثيرا من مفرداتها بيديك، وتتطلب أيضا أن تسعى فيها لأن الصورة وحدها لا تمثل لك الطبيعة الجميلة على نحو ما تتصور هذه الطبيعة، وأنت تقترب منها رويدا رويدا فتراها من على البعد جميلة، ثم من قريب فتراها أجمل، ثم تقترب أكثر وأكثر فتجدها أجمل وأجمل، حتى إذا ما أصبحت بين يديك أو أصبحت أنت بين يديها وجدت الجمال كله.

(٤)

هل يغنى باريس أو يعنيها إذًا أن يقال عنها: إنها مدينة لكل العصور، أو لكل الأذواق؟

أغلب ظنى أن باريس لا تسعد بهذا الوصف ولا بذاك، وإنما هى تظن نفسها أنها أكبر من ذلك، وإن كانت تعرف أيضا أن عليها أن تبدو وكأنها تهيأت لأن تكون مدينة لكل عصر، وكل ذوق، ولهذا فإنها فى كل اختيار تصادفه تعمد إلى أن تكون باختصار شديد ملبية للرغبة لا قامعة لها، فإذا وقعت أسيرا لفكرة البحث عن جو من الأجواء فأغلب الظن أنك ستجده رغم أنك تعرف أن هذا الجو الذى تبحث عنه كان موجودا فى وطنك، لكن عباقرة وطنك منعوه أو حجبوه أو أنهوه ورفعوا لهذا المنع أسبابا بدت وجيهة.

تخيل أنك تبحث عن الشيشة فى باريس فإذا أنت تجدها، بينما محافظ إقليمك قد منعها(!) فى مدينتك، وهنا تأتى المفارقة، فالباريسيون لا يدخنون الشيشة، وإذا جاز أن بينهم مَنْ يدخنها فإن نسبة هؤلاء لا تبلغ واحدا على خمسين من نسبتهم فى مدينتك، والباريسيون لا

يحبون للهواء أن يتلوث ولا للأبدان أن تتأذى بالتدخين الإيجابى أو السلبى، لكنهم مع كل هذا يجدون السبيل لأن يخصصوا أماكن بعينها لمثل هذه الرغبة حتى لو كانوا يرونها (كما تراها أنت) رغبة شريرة، وهم يؤهلون مثل هذه الأماكن بما يضمن تقليل الآثار السيئة الناشئة عنها أو إلغاءها.

(٥)

وفى كل ميدان تجد عناية ظاهرة يتمها أهل باريس بذكاء خارق، فهم لا يحفرون الأرض من أجل شكل جديد، لكنهم يشكلون ما يريدون بعيدا بعيدا، على ماكيتات ذكية ثم يأتون به إلى أرض الواقع، وذلك على نحو ما يروى من أنهم فعلوه حين أقاموا ذلك البرج العظيم «برج إيفل» وجاؤوا بقطع الحديد التى يتكون منها فركبوها دون أن يجدوا خطأ واحدًا فى أطوال أو توجه أى قطعة من هذه القطع الكثيرة.

ويبدو أن هذا الأسلوب التنفيذى المتميز لايزال يصبغ عمل أهل باريس، وعلى سبيل المثال فإنهم إذا أرادوا أن يكتبوا كلمة أو جملة بالزهور كتابة كبيرة فى ميدان كبير، فإنهم لا يزرعون أرض الميدان ولا يحرثونها، وهم لا يقيمون الدنيا ولا يقعدونها فى الميدان، وإنما يرسمون ما يريدون على ماكيت ويتصورون مكان كل زهرية من زهريات الورود، ويعطون لكل زهرية رقما حسب موقعها فى خطوط الطول والعرض، أو ما نسميه فى علوم الرياضة بالإحداثيات السينية والصادية، ثم يأتون بهذه الزهريات الكبرى ويرصونها رصًّا، فإذا هى تخرج لهم الرمز الذى أرادوه، أو الكلمة التى يريدونها، أو الجملة التى صاغوها.

وربما يقتضى هذا بالطبع أن تكون هناك زهريات أعلى من أخواتها، وليس هذا بالأمر الصعب إذا ما لجأت البلدية إلى أطوال مختلفة من الزهريات، وإلى أحجام مختلفة منها، وهم يؤدون مثل هذا الأداء مرارا وتكرارا دون أن يملوا، ودون أن يفسدوا ما ورثوه من معمار جميل، ومن رصف متين.

(٦)

هل باريس قاسية؟

هل هى قاسية على أهلها؟

هل هى قاسية على زوارها؟

هل هى قاسية على الدوام؟

هل هى قاسية لأنها جميلة وفاتنة ولابد لها من القسوة؟

أسئلة لاتزال ترد بخاطر الكثيرين الذين يمرون بباريس، والذين يعيشون فيها على حد سواء، لكن أحدًا منهم لا يستطيع أن يصوغ دفاعًا عن باريس ينفى عنها طبيعة القسوة، كل ما نستطيعه نحن الذين نحب باريس هو أن نقدم أسبابًا تبرر هذه القسوة من قبيل قولنا: إنه لابد منها لأنها لو لم تكن قاسية ما احتفظت بكل هذا الرونق، فكيف يمكن لها أن تتسع لكل الذين يحبونها وتتركهم على حرياتهم، فإذا هم يحيلونها قاهرة أخرى؟ إنها لابد أن تصفى هؤلاء وأن تختصرهم فى عدد لا يجعلها مختنقة مكدسة، ولهذا فهى تجرى بينهم مزادًا صعبًا، ولا تترك فى قلبها إلا مَنْ تمكن من أن يدفع ثمنًا لبقائه فيها، أو لبياته فيها، أما الذين يعجزون عن تلبية أسعار الفنادق والمساكن الباريسية فعليهم أن يلجؤوا إلى غيرها.

لعلك تحاورنى وتقول: فماذا تفعل باريس إذا كثر القادرون على مهرها وجاؤوا جميعا؟

تعرف أنت بالطبع الجواب، وهو أن أماكن باريس المحدودة (على كثرتها وعلى سعتها) محجوزة مقدمًا، وليس فى وسعك أن تجد فيها مأوى بلا حدود، إنما هى أرقام كبيرة لكنها محددة، وإذا ازدحم الناس على هذه الأماكن أجريت بينهم قرعات المزايدة حتى لو اقتضى الأمر أن يدفع الأكثر احتياجا والأكثر قدرة لمن هو أقل منه قدرة واحتياجا تعويضًا عن المكان الذى حجزه من قبل كى يستأثر هو به!! بل إن هذا يحدث فى المطارات على خطوط الطيران، وفى الفنادق، وفى كل شىء محجوز فى باريس، لكن أحدًا لا يستطيع أن يكسر هذه القواعد فيضع

شخصين أو ثلاثة فى الحيز المخصص لشخص واحد على نحو ما نفعل فى جامعاتنا، وفى كثير من مرافقنا!!

(٧)

ربما عنّ لكثير من الزوار سؤال مهم عن ثراء الباريسيين: وهل يمتلك هؤلاء الباريسيون جميعا ما يمكنهم من الاستمتاع بكل هذه المباهج التى من حولهم؟

والسؤال وجيه، وإن كانت إجابته معروفة سلفا، وهى أن الباريسيين أغنياء وفقراء، وأن عدد الفقراء الباريسيين يفوق عدد الباريسيين الأغنياء، لكن الذى لاشك فيه أن كل فقير من هؤلاء الفقراء يجد متعة فى اقترابه من هذه المباهج، لا تقل لى ما يقوله بعض أهل الفطرة السذج لأنفسهم إنه يكفيهم أن يروا آثار السعادة على وجوه مَنْ يمرون بهم، أو آثار البهجة على مَنْ يأتون إليهم، أو آثار الحزن لفراق هذه المغانى الجميلة.

لكن ذلك كله لا يمثل الحقيقة التى يعرفها الناس جميعا، وهى أن الوصول إلى مكانة متقدمة فى العاصمة الفرنسية لا يتاح لكل مَنْ يقصدها:

- فهناك مَنْ تقف مواهبه أو حظوظه عند حدود الدائرة الأولى من باريس، أى عند حدود تلك الدائرة التى تصلح تذكرة المترو البسيطة للتحرك فيها (على نحو ما يتعارف سكان باريس الذين يستعملون المترو).
- وهناك مَنْ تقف مواهبهم أو حظوظهم عند حدود الدائرة الثانية، أى عند حدود الضواحى الباريسية التى هى من باريس معنى، وإن لم تكن من باريس اسما، لكن اتصالها بقلب العاصمة ميسر بفضل قطارات الضواحى (آر آى آر).
- وهناك من تطوح بهم الأقدار خارج هذه الدائرة وتلك ليعيشوا بالقرب من باريس فى إحدى المحافظات السبع التى تحيط بباريس من جميع النواحى.
- وهناك بالطبع مَنْ تقف حظوظهم دون أن ينالوا أى درجة من هذه الدرجات الثلاث، وهؤلاء كثيرون.

(٨)

يضع الباريسيون أعينهم على مكانة فنادقهم بين فنادق العالم، وهم لا يهتمون بالطبع بأن يكون فى بلادهم أكبر فندق فى العالم، أو أعلى فندق، فهم يعرفون أن بلادهم نفسها هى أكبر فندق فى العالم، لكنهم يضعون أعينهم على كتب المعايير الدولية من قبيل دليل ميشلين الأشهر للمطاعم وتصنيفها.

وإذا كان لابد لى أن أحدثك عن فندق من الفنادق الباريسية فإنى أرى فندق جورج الخامس يتراءى أمام ناظرى لأسباب كثيرة، أولها أن أستاذنا التابعى، ومن بعده تلميذه وصديقه وراويته أستاذنا مصطفى أمين، قد أكثرا من الحديث عن حب التابعى للإقامة فى هذا الفندق.

ثانيها، وربما كان هو السبب فى أولها، أن ساسة العالم فى زمن الحرب العالمية الثانية كانوا يقيمون فى هذا الفندق حتى إن الرئيس الأمريكى أيزنهاور، وكان لايزال قائدا لقوات الحلفاء، اتخذ من الفندق مقرًّا لقيادة هذه القوات أثناء الحرب العالمية الثانية، وتحرير باريس، وهكذا كان يتردد على هذا الفندق كل مَنْ كانت له صلة بالحلفاء.

ثالثها أن هذا الفندق هو الرمز الأمثل للصفاء البريطانى ـ الفرنسى على الرغم من ندرة هذا الصفاء، بل استحالته فى نظر الكثيرين، ولا يتجلى هذا الصفاء فى اسم الفندق المنسوب إلى الملك جورج الخامس فحسب، لكنه يتجلى أيضا فى ديكوره، وطابعه الفرنسى ـ البريطانى الذى لا يستطيع أن يتصف بجنسية من الجنسيتين دون الأخرى. أضف إلى هذا أن محطة المترو سميت باسمه، وأن المنطقة كلها أصبحت تحمل اسم جورج الخامس وأشهر ما فى المنطقة بالطبع هو مقهى جورج الخامس.

رابعها أن هذا الفندق قد أصبح الآن جزءا من المملكة، أو فلنقل من الممتلكات العربية فى أوروبا، حيث يمتلك الأمير الوليد بن طلال حصة كبيرة فى الشركة المالكة له.

(٩)

ولكن عن أى شىء أحدثك فى هذا الفندق؟

دعنى أحدثك عما يصوره مديروه من عناية بنزلائه إلى حد أن يقولوا: إن لكل نزيل ثلاثة من العاملين، وليس معنى هذا بالطبع أن هناك ثلاثة من العاملين يقفون حول النزيل ليقولوا له: شبيك لبيك، ولكن معنى هذا كما نعرف أن عدد العاملين فى الفندق، بمن فيهم المدير والإداريين، يبلغون ثلاثة أضعاف طاقته الاستيعابية من النزلاء.

لكن هذا الرقم ليس هو المهم فى نظرى، فالأهم منه هو أن هذا الفندق لا يقف عند حدود طباخه الأشهر وحده، وإنما يضم معه سبعين طباخا من خيرة الطباخين.

تسألنى بالطبع عن سعة هذا الفندق الذى كان الأستاذ التابعى يذهب إليه فيجد الجناح الملكى فيه مشغولا على نحو ما كان يروى مصطفى أمين، فأقول لك: إن الفندق لا يضم جناحا واحدا لكنه يضم ٥٩ جناحا من بين حجراته البالغ عددها ٢٤٥ غرفة، يأتى إليها المشاهير من الفنانين، ثم يتجولون على أقدامهم حتى يصلوا إلى مقهى جورج الخامس على ناصية الشانزليزيه فيجلسوا وراء الزجاج فيسعد المارة بأنهم رأوهم رأى العين.

هل تظن ياسيدى أن أثرياء العرب وحدهم هم الذين يقيمون فى مثل هذا الفندق؟ أفاجئك ياسيدى بما نشرته جريدة «الحياة» فى عدد من أعدادها فى عام ٢٠٠٦ حين ذكرت أن نسبة النزلاء من العرب فى هذا الفندق لا تتعدى ٨٪.

(١٠)

أما مزارات باريس التقليدية فى السنوات التى نعيشها الآن فلا تكاد تحصى، لكن البرامج السياحية تركز على عدد تقليدى منها حتى باتت وكأنها روتين واجب:

- سفينة الباتوموشى التى تمخر عباب نهر السين مرورا بمعالم باريس.
- جامع باريس واللوفر وقوس النصر والشانزلزيه وفرساى وإيفل والبانثيون والإنفاليد

والباستيل وفرساى واللوكسمبورج والساكركير والنوتردام والسوربون والجمعية الوطنية و قصر العدالة وقصر البوربون.

- أما مسلة الكونكورد فهى قائمة أمام عينيك دون زيارة، وكأنها تمثل مصر الموجودة بفضل الله أمام الأعين على الدوام.
- ولابد لهواة اللهو من سهرة فى إحياء اللهو.
- ثم إن لك أن تنطلق من باريس:
- فلابد من زيارة ديزنى لاند الأوروبية أيضا.
- وإذا كان هناك وقت أكثر فإلى مونت كارلو، وشواطئ الكوت دازور.

(١١)

ومن معالم باريس العربية التى يدعوك إليها العرب إذا أرادوا أن يثبتوا لك أنهم يعيشون فى بلد عربى أحياء كثيرة منها بولفار لاشابيل فى شمال باريس حيث يقطن عرب كثيرون وقد نقلوا نمط الحياة العربية إلى باريس بكل ما فيه من سمات.

وبالإضافة إلى الأحياء والشوارع العربية تجد كثيرا من المطاعم والمقاهى التى تنتمى بما تقدمه إلى أقطارها.

وقل مثل هذا فى المكتبات العربية التى تزداد عددا وتنوعا.

(١٢)

يشعر زوار باريس فى الألفية الثالثة بأن الحياة فيها أصبحت مكلفة إلى أبعد الحدود، لكنها فى الوقت نفسه لاتزال قادرة على أن تستوعب الفقراء والمدبرين لأمورهم، لكن مثل هذا التأقلم يقتضى قدرا معقولا من المعرفة، وقدرا معقولا من الإرادة.

وفى وسعك إذا أردت أن تصدم أحد المتحذلقين بأسعار باريس أن تأخذه إلى محل بالى فى

الشانزلزيه، وهو فى المبنى رقم ١٤٦ من الشانزليزيه، وستجد أسعار الأحذية فوق الخمسمائة يورو، وحتى تكون فى الصورة تماما فإنى أدلك على أن هذا المحل شأن محلات فرنسا أو باريس (على وجه الخصوص) يعمل من العاشرة حتى السابعة فيما عدا يوم الأحد، وإذا أردت أن تعرف ثمن أرخص حذاء فيه فإنه فى حدود المائتين وخمسين يورو، وبالى الفرنسية شركة مساهمة لها علاقة بالطبع ببالى السويسرية.

وإذا أردت أن تواصل تخويف صديق متحذلق فعليك أن تذهب به إلى محل مجاور لنادى البيرة فى الشانزلزيه حيث يعرض نوعا من الملابس الحريرية التى يزعم أهل المحل أن أحدًا غيرهم لا ينتجها ولا يعرف الطريق إلى قماشها، وفى هذا الحال فإن سعر البنطلون الواحد يبدأ من ٩٠٠ يورو، أما البدلة فيدور سعرها حول رقم الخمسة آلاف يورو.

أنا أعرف أنك تعرف أن بعض محلات القاهرة تعرض وتبيع بأسعار أعلى من هذه الأرقام بكثير، لكن هذه المحلات القاهرية لا تجاهر بهذا فى شارع يمر به كل الناس كشارع الشانزليزيه، وإنما هى تمارس هذا البيع من وراء زجاج، ودون أن تعلن هذه الأسعار بأحرف كبيرة، وبكل هذه الصراحة والوضوح.. وربما الاستفزاز.

(١٣)

دعك من أسعار الملابس والأزياء التى يمكن لك أن تجد منها درجات مختلفة، وتعال نناقش بعض أسعار العقارات التى تمثل فى نظر بعض الاقتصاديين مؤشرًا للحديث عن مدى الرواج الاقتصادى، وعن مدى الغلاء أيضًا.

والواقع أن العقار فى باريس وفى كثير من المدن الأوروبية قد شهد طفرة غير مسبوقة فى أسعاره، وعلى سبيل المثال فهذه شقة فى حى الديفانس كانت تساوى ٨٠ ألف يورو فى مطلع الألفية الثالثة، ثم اشترتها الأسرة الصديقة بمائة وعشرين ألف يورو منذ خمسة أعوام، ثم أصبحت الآن تساوى مائتين وأربعين ألف يورو، والشقة ثمانون مترا ولها واجهتان. وبها حجرتان للنوم واستقبال واسع وحمام ومطبخ، والمطبخ لا يزيد على متر ونصف عرضا وأربعة أمتار طولا، لكن به دواليب كثيرة، وكذلك للشقة دواليب كثيرة فى الحائط.

أما الاشتراك فى الجراج، وهو أمر لابد منه فى حى الديفانس (نيويوركى الطابع، أو فلنقل إنه قاهرى الطابع مع كثير من الرقى والنظام)، فإنه يكلف ١٢٥ يورو فى الشهر، وهو أربعة أدوار، وهكذا تتحرك العائلة الصديقة من الطابق السابع السكنى إلى الطابق الأرضى ثم يخرجون من مدخل العمارة أو البرج إلى هذا الشارع الذى لايمكن وصفه إلا بأنه شارع صناعى، وذلك أنه شارع خرسانى علوى، صحيح أنه عريض وممتد وبه جزيرة بها زهور، لكنه صناعى، ومن هذا الشارع الصناعى الكبير ينزلون بالمصاعد إلى حيث تركوا سياراتهم فى الدور الرابع تحت الأرض.

(١٤)

وهذه الشقة حسب تعبير التسويق العقارى المصرى المبتكر ترى نهر «السين» من شرفتها، لكنها لا تراه مباشرة وإنما تراه بعد أن ترى عمارة أخرى إدارية بينها وبينه، وهى فى المنطقة الأولى من مناطق حى الدفاع، وهو حى ذو مناطق كثيرة أذكر منها الدفاع ٦ حيث يقع فندق سوفتيل الذى أقمت فيه فى مايو ٢٠٠٦.

(١٥)

لاتزال باريس تزدحم فى ساعات العمل، ويصبح زحامها قاسيًا فى بعض هذه الساعات، وهى لا ترحم الذين لا يجدون ما ينفقون، كما أنها لا ترحم الذين لا يحددون ما يريدون ولا الذين لا يعرفون ما عليهم أن يفعلوا، لكن باريس مع هذا تزداد فتنة مع الأيام، وأهلها ومسؤولوها يعتبرونها بيتا صغيرا لكل منهم يعنون به عناية خاصة، ويظهرون أوجه هذه العناية كلما سنحت فرصة:

فهذه ذكرى انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهم لهذا يضعون فى الاحتفال بهذه النهاية السعيدة المنصات العريضة فى الميادين الكبيرة ويرصون عليها الزهور المبتهجة والمبهجة، وينيرون الدنيا كلها بأنوار خاصة.

وهذه ذكرى ثقافية تخص عالمنا العربى (ولا تكاد تذكر فى أوطاننا) فإذا هم يحولون الأنوار شيئا رومانسيا، كأنما الدنيا مطفأة كلها وينبعث فيها نور أبيض يرمز إلى المعرفة ودورها فى إنارة العقول.

(١٦)

من حيث السياحة فإن باريس اليوم هى فى رأيى أبرز المقاصد السياحية فى العالم بلا جدال فهى تمتلك كل المقومات السياحية الفذة:

- تضم باريس العديد من المعالم الجاذبة للسياح من الأماكن التاريخية والمزارات الأثرية التى وجدت على مر القرون.
- تضم مجموعة معتنى بها ونادرة ومتنوعة من المتاحف ومسارح النظر والفكر مع حرص الحكومة الفرنسية على إنشاء وتطوير المزيد.
- هى أحد أكبر مراكز الفن فى العالم وتقتنى عددا كبيرا من اللوحات لأبرز الفنانين العالميين.
- تمتلك المدينة ٤ مواقع من مواقع التراث العالمى.
- أهم متاحف المدينة وهو متحف اللوفر الذى يستقبل ٨ ملايين زائر سنويًا، هو أكبر المتاحف من حيث عدد الزوار فى العالم بفارق شاسع عن أقرب منافسيه.
- كاتدرائية نوتردام دو بارى تستضيف ١٢ مليون سائح سنويًا.
- برج إيفل أشهر معالم المدينة على الإطلاق: يستقبل فى المتوسط أكثر من ٦ ملايين سائح سنويًا، واستضاف أكثر من ٢٠٠ مليون سائح منذ بنائه.
- تبعد يورو ديزنى قرابة ٣٠ كم إلى الشمال الشرقى من وسط المدينة، وتمثل وجهة سياحية رئيسية لجميع زوار القارة الأوروبية: استقبلت ١٤,٥ مليون سائح عام ٢٠٠٧.

(١٧)

أما باريس التى تخلب لب الشبان والفتيان فلها جاذبيات متعددة:

- فهى مقر نادى باريس سان جيرمان لكرة القدم.

- ملعب فرنسا الذى يتسع لأكثر من ٨٠ ألف متفرج هو أكبر ملاعبها، وقد بنى هذا الملعب فى منطقة سان دينس لاستضافة كأس العالم لكرة القدم ١٩٩٨ وكان تميمة حظ فقد حازت فرنسا فى ذلك العام الكأس للمرة الأولى فى تاريخها.
- استضافت باريس كأس العالم لكرة القدم عامى ١٩٣٨ و١٩٩٨ أى أن المرة الثانية كانت بعد ستين عاما من المرة الأولى.
- استضافت باريس دورة الألعاب الأوليمبية عامى ١٩٠٠ و١٩٢٤.
- تعد كرة المضرب إحدى أكثر الرياضات شعبية فى المدينة. تستضيف باريس بطولة فرنسا المفتوحة التى تقام سنويًا على ملعب رولان جاروس.
- تقام بطولة باريس للشطرنج فى المدينة منذ عام ١٩٢٥.
- فى باريس عديد من الملاعب المخصصة لمختلف أنواع الرياضات.

(١٨)

وإذا كانت الحضارة فى جوهرها اتصالات فإن لباريس الحظ الأكبر:

- فهى تتميز بتنوع وسائل المواصلات وجودتها.
- كما تتميز بمترو باريس الذى افتتح عام ١٩٠٠ ويستقله حوالى ٩ ملايين راكب يوميًا.
- تم بناء شبكة مترو الأنفاق (RER) من أجل الوصول إلى الضواحى البعيدة فى المدينة.
- طورت الدولة شبكة من الخطوط الحديدية السريعة لخدمة ضواحى باريس.
- لمترو باريس الآن ٣٠٠ محطة (٣٨٤ نقطة توقف) وقضبان يبلغ طولها ٢١٤ كم، و١٦ خطًا تحمل الأرقام من ١ إلى ١٤، بالإضافة إلى خطى (3bis و7bis).
- شبكة المترو الأسرع التى يرمز لها بالحروف RER، مكوّنة من ٥ خطوط سريعة (A, B, C, D, & E) تمتد إلى مناطق أبعد من سابقتها. تضم ٢٥٧ نقطة توقف وقضبانا يبلغ طولها ٥٨٧ كم.

- فى باريس أيضًا شبكة ترام تتألف من أربعة خطوط:
- الخط الأول: بين سان دينس ونوازى لو سك.
- الخط الثانى: يمر من لا ديفونس إلى إيسى - فال دو سين.
- الخط الثالث: بين بون دو جاريجليانو إلى بورت ديفرى.
- الخط الرابع: من بوندى إلى أولناس سوبوا.
- يتم الآن إنشاء ستة خطوط ترام إضافية. ولم يقل أحد: إن الترام شىء قديم أو أثرى ينبغى نزعه ودفنه.

(١٩)

تملك باريس أيضا أفضل شبكة من الطريق البرية السريعة فى فرنسا. ويمتد طول هذه الشبكة لأكثر من ٢٠٠٠ كم.

تحيط بالمدينة ثلاثة طرق سريعة:

- الطريق الدائرى، الذى يتبع مسار الحصون المحيطة بباريس فى القرن التاسع عشر تقريبًا، وهى ما أسميها لأصدقائى البوابات، على غرار بَابَى الفتوح والنصر فى القاهرة.
- وطريق ٨٨٦ الموجود فى الضواحى الداخلية، وطريق فرانسليان الموجود فى الضواحى الخارجية.
- يبلغ طول الطريق الدائرى الباريسى الشهير (بوليفار بيريفيريك) ٣٥ كم فقط ولهذا فهو فاعل وفعال، ولك أن تقارنه بالدائرى حول القاهرة الذى يتعدى ١٠٠ كيلو متر.
- تبعد باريس برًّا ٤٥٠ كم إلى الجنوب الشرقى من لندن.
- وتبعد ٢٨٧ كم إلى الجنوب من كاليه الميناء الذى نعبر منه إلى الشاطئ الإنجليزى.
- وتبعد ٣٠٥ كم إلى الجنوب الغربى من بروكسل.
- بينما تبعد ٧٧٤ كم إلى الشمال من مارسيليا.

- يمكن الوصول إلى لندن خلال ساعتين وربع فقط باستخدام القطار.
- يمكن الوصول إلى بروكسل من باريس برًّا فى ثلاث ساعات.
- وإلى فرانكفورت فى ست ساعات.
- وإلى برشلونة فى اثنتى عشرة ساعة.

(٢٠)

ونأتى إلى النقل الجوى والبحرى:

- لباريس ٤ مطارات دولية: مطار شارل ديجول، ومطار باريس أورلى، ومطار باريس لو بروجيه، مطار بوفايه تييه.
- المطاران الرئيسان المشهوران هما مطار باريس أورلى الواقع فى جنوب المدينة، ومطار شارل ديجول الواقع فى الجزء الشمالى الشرقى من المدينة وهو مقر شركة إير فرانس وهو أحد أكثر المطارات ازدحامًا فى العالم.
- منطقة باريس هى واحدة من أكثر مناطق فرنسا استخدامًا للنقل المائى، حيث يتم نقل البضائع بوساطتها عبر أنهار اللوار، والراين، والرون، وميوس، وشيلدت، ويمكن الوصول إلى هذه الأنهار بواسطة قنوات متصلة مع نهر السين.

(٢١)

وأنتقل بك إلى تصوير الاقتصاد الباريسى فى عجالة وأرقام ذات دلالة:

- عام ٢٠١١، حقق الناتج المحلى الإجمالى لمدينة باريس أكثر من ٦٠٠ مليار يورو (٨٤٥ مليار دولار) وهو من أكبر النواتج المحلية للمدن فى العالم.
- كى نفهم قيمة هذا الرقم فلو كانت باريس دولة، لكانت فى المركز السابع عشر فى قائمة أقوى اقتصادات العالم، فاقتصاد المدينة بمفردها أكبر من الاقتصاد الهولندى.

- وفى حين أن سكان منطقة باريس الحضرية مثلوا ١٨,٨٪ من سكان فرنسا عام ٢٠١١ فإن الناتج المحلى الإجمالى للمدينة مثل ٣١٪ من ناتج فرنسا.
- تتركز الثروة بشكل كبير فى ضواحى المدينة الغربية، لا سيما تويى سور سين وهى إحدى أغنى مناطق البلاد.
- باريس هى بالطبع المقر الرئيسى لمعظم الشركات الفرنسية.
- تتركز الأنشطة الاقتصادية فى باريس فى وسط هوت دو سين وكذلك منطقة لا ديفانس مما حوّل مركز باريس الاقتصادى إلى الجزء الغربى من المدينة، وتحديدًا فى المثلث الذى زواياه قصر جارنييه، ولا ديفانس، وفال دو سين.
- لا تزال باريس أيضا مركزًا صناعيًّا مهمًّا فى أوروبا، خصوصًا فى مجال صناعة السيارات والطائرات والإلكترونيات.
- تحتضن منطقة باريس مقر ٣٣ شركة من الشركات العالمية الكبرى الـ ٥٠٠. كما أن منطقة إيل دو فرانس هى الثانية على مستوى العالم بعد منطقة كانتو.
- باريس هى المركز الاقتصادى الرئيس فى فرنسا وهى أكبر خامس مدينة فى العالم من حيث الناتج المحلى الإجمالى بعد طوكيو، ونيويورك، ولوس أنجلوس، ولندن.
- تحول اقتصاد باريس تدريجيًّا إلى اقتصاد حديث يعتمد على صناعة الخدمات ذات القيمة العالية مثل الخدمات المالية وخدمات تكنولوجيا المعلومات. وعلى الصناعة التكنولوجية الفائقة مثل صناعة الإلكترونيات والبصريات.

(٢٢)

وهذا تصوير لبعض التكوينات العامة فى باريس:

- تمتلك باريس أعلى نسبة من السكان الحاصلين على تعليم عالٍ. فى عام ٢٠٠٩، حوالى ٤٠٪ من الباريسيين كانوا حاملين لشهادة ليسانس أو أعلى، وهى أعلى نسبة فى فرنسا.

وفى الوقت الحاضر، يوظف التعليم فى باريس.

- ١٧٠٠٠٠ أستاذ وبروفيسور يدرسون ٢,٩ مليون طالب فى أكثر من ٩٠٠٠ مدرسة ومعهد.
- نظام التأمين الصحى العمومى فى مستشفيات باريس: نظام مستشفيات عام يوظف قرابة ٩٠,٠٠٠ موظف (بما فى ذلك موظفى الدعم الإمدادى والإداريين) منهم حوالى ١٥,٨٠٠ طبيب فى ٤٤ مستشفى، وذلك فى ٥٢ فرعًا من فروع الطب وهو أكبر نظام مستشفيات فى أوروبا. يوفر الرعاية الصحية، والتدريس، والبحوث، والوقاية، والخدمات الطبية الطارئة ويقدم خدماته لأكثر من ٥,٨ مليون مريض سنويًّا.

(٢٣)

ونأتى إلى مبررات النفوذ القوى لباريس :

باريس الآن هى مقر للعديد من المنظمات الدولية:

- اليونسكو.
- منطقة التعاون والتنمية الاقتصادية.
- غرفة التجارة الدولية.
- نادى باريس.
- وكالة الفضاء الأوروبية.
- الوكالة الدولية للطاقة.
- المنطقة الدولية للفرانكوفونية.
- المكتب الدولى للأوزان والمقاييس.
- الجامعة الدولية لحقوق الإنسان.

وهكذا فإن باريس فى رأى كثيرين هى أهم المراكز التجارية والثقافية الرائدة على مستوى العالم، ولها إسهاماتها المتجددة فى السياسة والتعليم والترفيه والإعلام والعلوم والفنون.

(٢٤)

ونأتى لبعض ما تخطط له باريس فى مستقبلها:

- تحتل باريس المركز الثانى على مستوى القارة الأوروبية بعد برلين فى مؤشر المدن الأوروبية الخضراء عام ٢٠٠٩.
- تنفذ باريس الآن مشروع تجديد يمكن لنا أن نترجم اسمه بباريس العظمى (Grand Paris) بدأ عام ٢٠٠٧ على يد الرئيس نيكولا ساركوزى. وهو مجموعة مشروعات اقتصادية وبيئية وثقافية ومشاريع تحسين الإسكان والنقل، من أجل تنشيط اقتصاد العاصمة.
- من أكبر هذه المشروعات مشروع لبناء مترو جديد يتألف من ٢٠٠ كم من الخطوط السريعة التى تربط مناطق باريس الكبرى مع بعضها البعض بتكلفة ٢٦,٥ مليار يورو، ومن المفترض الانتهاء من هذا المشروع بحلول عام ٢٠٣٠.

(٢٥)

ونأتى إلى الوصفين الجغرافى والديموجرافى لباريس التى نراها اليوم:

- كانت مساحة باريس (عام ١٨٦٠) تبلغ حوالى ٨٧ كم مربع بالإضافة إلى غابة بولونيا وغابة فانسن وقد توسعت حدود باريس فضمت غابة بولونيا وغابة فانسن إلى مدينة باريس رسميًا عام ١٩٢٩، فبلغت بذلك مساحة المدينة ١٠٥ كم مربعة.
- تبلغ مساحة منطقة باريس الحضرية ٢,٣٠٠ كم مربع.
- يربو عدد سكان المدينة مع ضواحيها الآن على ١٢ مليون نسمة.
- تقع المدينة فى منتصف منطقة إيل دو فرانس والتى أصبحت بلدية منذ عام ١٨٣٤.

تضم مدينة باريس جزيرتين:

- إيل سان لويس.
- إيل دو لا سيتى التى تعد أقدم أجزاء المدينة.

- باريس مدينة مستوية بشكل عام، ترتفع أخفض بقاع المدينة ٣٥ مترًا عن سطح البحر، وهذا سبب من أسباب جوها الجميل.
- تحوى باريس عدة تلال، أعلاها تلة مونمارتر التى ترتفع ١٣٠ مترًا عن سطح البحر.
- لم يغير نمو مدينة باريس من شكلها الدائرى الأول.

(٢٦)

وهذه بعض المؤشرات على دينامية سياسات السكان الباريسية:

- بلغ عدد سكان باريس ٢,٢٣٤,١٠٥ وفقًا لإحصائيات عام ٢٠٠٩. ارتفع إلى ٢,٢٤٣,٨٣٣ عام ٢٠١٠. لكنه ما زال أقل من الذروة التى وصل إليها عدد سكان المدينة عام ١٩٢١، حين بلغ عددهم أكثر من ٢,٩ مليون نسمة.

أهم العوامل التى أدت إلى انخفاض عدد سكان المدينة:

- الانخفاض المتزايد فى حجم الأسرة الباريسية.
- والهجرة السكانية الكبيرة التى اتجهت إلى ضواحى المدينة فى ستينيات وسبعينيات القرن الماضى.
- انخفاض النشاط الصناعى.
- ارتفاع أسعار الإيجار فى المدينة.

كان انخفاض عدد سكان باريس بارزا وحادًا من نوعه بين مدن العالم، لذلك سعت المدينة من أجل الحفاظ على سكان العاصمة الفرنسية، ونجحت، حيث أظهرت إحصائيات يوليو ٢٠٠٤ ارتفاعًا فى عدد سكان المدينة للمرة الأولى منذ عام ١٩٥٤.

- باريس واحدة من أكثر المدن كثافة سكانية فى العالم، تبلغ الكثافة السكانية للمدينة من دون احتساب غابتى بولونيا وفانسن ٢٤,٤٤٨ نسمة/ كم مربع وفقًا لإحصائيات عام ١٩٩٩.

- لا يمكن مقارنة هذا الرقم إلا مع بعض المدن الآسيوية الكبرى، وكذلك منهاتن فى نيويورك.
- أما مع احتساب الغابتين، فإن الكثافة السكانية تهبط إلى ١٦٩ , ٢٠ نسمة/ كم مربع.
- فى تعداد باريس السكانى عام ١٩٩٩ فإن ٤ , ١٩٪ من سكانها ولدوا خارج فرنسا.
- ووفقًا لنفس التعداد فإن ٢ , ٤٪ من سكان منطقة باريس الحضرية كانوا مهاجرين حديثين (أى هاجروا بين عامى ١٩٩٠-١٩٩٩)، معظمهم من آسيا وأفريقيا.
- ٣٧٪ من المهاجرين الذين يعيشون فى فرنسا يقيمون فى منطقة باريس.
- باريس بمصطلح علم السكان : مدينة شابة نسبيًّا؛ فوفقًا لإحصائية عام ٢٠٠٨، كانت نسبة السكان الذين تقل أعمارهم عن ٣٥ سنة ٤٦٪. وهى نسبة أعلى من المعدل الوطنى ٨ , ٤١٪.

(٢٧)

وأخيرًا فإنى ساكتفى لك بمؤشر واحد معبر من مؤشرات التقييم السياحى :

- فى باريس أكثر من ٠٠٠ , ٩ مطعم فى الوقت الحالى.
- فى عام ٢٠١٣، كان فى باريس ٨٥ مطعمًا ذا نجمة، حسب تصنيف ميشلان، وكانت بذلك الثانية على مستوى العالم بعد العاصمة اليابانية طوكيو، و١٠ مطاعم ذات ٣ نجوم ميشلان.
- وهذه الجائزة (نجوم ميشلان الثلاث) هى أهم الجوائز التى تمنح لمطعم على الإطلاق.

(٢٨)

كنت أود أن أحدثك حديثا سيبدو لك قديما عن الفرنك الفرنسى وما يحمله من صور وإيحاءات، لكن فرنسا اليوم تتعامل باليورو، وتجد نفسك فيها تشترى بالعملات التى كنت

تشترى بها فى جاراتها، أو التى ستتعامل بها فى جاراتها، فقد مضى عهد الفرنك! ولا أستطيع أن أقول إلى غير رجعة، فربما يعود عهد الفرنك، ومع هذا -ولأنى رجل قديم شهد عهد الفرنك- فإنى أحب أن أصوره لك من خلال حديثى عن الارتباك فى تقدير الدول لرجالها باختياراتهم للعملة التى يضعون صورتهم عليها، لكن الارتباك نفسه لا يعدو أن يكون بمثابة تعبير عن تفاوت هذا التقدير.

وأذكر أننى ناقشت الصور التى نضعها على عملاتنا الورقية فى مصر، فى كتاب من كتبى، لكننى فى كتابنا هذا أحدثك عن أن فرنسا قبل أن تعرف اليورو كانت تضع صورة باسكال على الـ ٥٠٠ فرنك، ودولاكروا على الـ ١٠٠ فرنك، ومونتسيكو على ورقة المائتى فرنك، وأحدثك بالطبع عن الأهم من هذا، وهو أن فرنسا فى عهد ديجول كانت قد وضعت صورة لبريجيت باردو التى كانت لاتزال فى شبابها على العملة، كأنها كانت تراهن على حب فرنسا الدولة والحكومة لفرنسا الفن والجمال!!

■ ■ ■

الباب الثانى

العلم فى باريس

(١)

هل يمكن اكتساب العلم فى بلد الملذات؟

دعنا نبدأ الحديث فى هذا الباب على الطريقة الاقتصادية التى تنظر إلى الأمور على سبيل الإجمال قبل أن نتحدث عنها بالتفصيل.

منذ عشرات السنين لخص طلعت حرب باشا حياة فرنسا العلمية على نحو جميل فقال:

«.. وباريس العلم هى باريس السوربون (Sorbonne)».

والسوربون من أقدم الجامعات فى الغرب، منزلتها منه منزلة الأزهر من الشرق من حيث القدم فى كليهما، والسوربون كما تعلمون تطلق على كلية الآداب وكلية العلوم.

وقد تطلق أيضا على معهدين ملاصقين لهما روح وجسد وهما: كوليج دى فرانس (College de France) ومدرسة الوثائق القديمة (Ecole des Chartes).

«وهذه المعاهد العلمية تعتبر بمثابة القلب من جامعة باريس. فمن آدابها وتاريخها وفلسفتها يمتد النور إلى كلية الحقوق».

«ومن علومها الوضعية الطبيعية والكيمائية وتاريخها الطبيعى يمتد ضياء آخر إلى كلية الطب».

«ومنها جميعا يشرق نور الجامعة الكبرى إلى بقية الجامعات فى الإقليم، وينعكس إلى قباب الأكاديميات الشهيرة فى سرابها فوق نهر السين».

(٢)

فيما قبل طلعت حرب تحدث رفاعة الطهطاوى عن عدد من المكتبات العامة والتاريخية فى فرنسا فى العهد الذى زارها فيه حديثا يجدر بنا أن نتأمل فيما يدل عليه من عراقة مؤسسات البحث العلمى فى أوروبا، ومدى ما أتاحته هذه العراقة من تنشئة أجيال محبة للعلم والفكر والثقافة، أو على الأقل مقدرة لها:

يعدد الطهطاوى خزائن الكتب :

- الخزانة المسماة «خزانة مسيو»، وتسمى خزانة «الأرسنال»، والأرسنال هى الترسخانة، وهى أعظم الخزائن بعد الخزانة السلطانية، وبها نحو مائتى ألف مجلد مطبوعة، وعشرة آلاف منسوخة، وأغلب هذه الكتب كتب تاريخ وأشعار، خصوصا «الإيطاليانية».
- خزانة «مزارينة»، وفيها خمسة وتسعون ألف مجلد مطبوعة، وأربعة آلاف منسوخة».
- خزانة «الإنسطيطوت» وفيها خمسون ألف مجلد.
- «خزانة المدينة وهى نحو ستة عشر ألف مجلد، وهى دائما فى الزيادة، وكتبها آداب».
- خزانة «بستان النباتات»، وفيها عشرة آلاف مجلد فى العلوم والطبيعيات.
- خزانة «الرصد السلطانى»، وبها كتب «علم الهيئة».
- خزانة «مكتب الحكمة».
- خزانة «أكدمة» الفرنسيين، وهى خمسة وثلاثون ألف مجلد.
- «وكل هذه خزائن موقوفة».

(٣)

ثم ينتقل الطهطاوى للحديث عن المكتبات الخاصة والفردية وعن حب الفرنسيين للقراءة التى هى السبيل الأول للعلم فى ذلك الوقت.

«وهناك خزائن مملوكة وهى كثيرة جدًّا، فمنها ما يشتمل على خمسين ألف مجلد، ومنها للدولة نحو أربعين خزانة، فأقل ما يوجد منها ثلاثة آلاف مجلد، وأكثرها فى الغالب خمسون ألف مجلد، وقد تنوف على ذلك، ولا حاجة لتسميتها هنا، ولكل إنسان من العلماء أو الطلبة أو الأغنياء خزانة كتب على قدر حاله».

«ويندر وجود إنسان بباريس من غير أن يكون تحت ملكه شىء من الكتب، لما أن سائر الناس تعرف القراءة والكتابة، وسائر بيوت الأعيان فيها خلوة مشتملة على خزانة الكتب، وعلى آلات العلوم وأدواتها، وعلى التحف الغريبة التى تتعلق بالفنون، كالأحجار التى يبحث عنها علم المعادن ونحو ذلك».

(٤)

ربما جاءت الفرصة لأذكر لك أن المثقفين الفرنسيين يرون الآن (بعد أن راحت السكرة وجادت الفكرة) أن ميتران أنجز أربعة أشياء ثقيلة هى: قوس النصر الكبير الذى صاغه على نمط الحضارة الحديثة بقسوتها فى المعمار، والأهرام الثلاثة التى بناها فى اللوفر، والأوبرا التى بناها بالقرب من الباستيل، والمكتبة الوطنية الشهيرة التى أصبحت تحمل اسمه والتى بناها على السين.

(٥)

لم تتوقف فرنسا عن الإضافة إلى مقتنياتها من متاحف الثقافة وكنوزها، صحيح أن معظمنا ارتبط فى وجدانه بما رواه أجداده عن باريس من قبل، لكن بعضنا يعرف أيضا عن الجديد ما هو أكثر لأنه عرف عن باريس من المحدثين ما لم يره القدامى بحكم الزمن.

وعلى سبيل المثال فإن مركز بومبيدو نال الكثير من هجوم المثقفين التقليديين (بمن فيهم المصريين الذين يزورون باريس)، والذين رأوا فيه طابعا حديثا أو حداثيا لا يليق أن يوجد إلى جوار كنوز باريس، لكن المحدثين من العرب يقدرون هذا المركز حق قدره، انظر إلى صموئيل شمعون وهو يصف غرامه بهذا المركز منذ أن عرفه:

«مشينا بضع دقائق فأشار مصطفى (الحداد) إلى مبنى ضخم: «هذا هو مركز بومبيدو، وأنا واثق أنك ستحبه»، قال لى وغادر».

«لم يكن مصطفى يعلم وهو يدلنى على «مركز بومبيدو» أنه كان يقدم لى أجمل هدية تلقيتها طيلة حياتى، كان مركز بومبيدو المنجم الذى سأنهل منه كل ما كنت قد حرمت منه طيلة سنوات عمرى الثمانى والعشرين. فى تلك الظهيرة، كنت مأخوذا وأنا أسير بين رفوف المكتبة المليئة بكتب الآداب والسينما والموسيقى والعمارة والفن التشكيلى والقواميس، حتى كتب المطابخ أثارت اهتمامى، «كم أتمنى لو أسجن هنا»، قلت فى نفسى، وأنا أجلس على الأرض أتصفح عشرات الكتب التى تتحدث عن صناعة الأفلام، وكيفية كتابة السيناريو، وسير وتجارب السينمائيين».

(٦)

أما التفرغ للعلم فى باريس فتصوره -كما نعرف جميعا- حالة الدكتور عبد الرحمن بدوى، وهى الحالة التى وصفها تلميذه «الدكتور أنور عبد الملك» فقال:

«..مازال أستاذنا الجليل يعمل يوما بعد يوم فى باريس بعد الكويت، ينتج نحو أربعة مجلدات كل عام، مازلت أستمع إليه فى جلسات دافئة تجمع بيننا صباح الأحد أمام نهر «السين» حول الوجود والزمان، ومصر، دوما، بداية ونهاية».

(٧)

تحدث الفنان محمود مختار عن زيارته الأولى لمدرسة الفنون الجميلة فى باريس، فقال:

«أما مدرسة الفنون الجميلة العالية التى كنت أقصدها هناك فنظامها كنظام الأزهر هنا عبارة عن (ateliers) ورش فنية يتولى كل ورشة منها أستاذ، فكأنها أروقة، وهؤلاء الأساتذة شيوخها. فيتصل التلميذ بأحد هذه الأقسام ويرتبط اسمه طول حياته باسم أستاذه رئيس قسمه، وكان أستاذى هو المسيو كوتان (Cotan) عضو المجمع العلمى، ومن كبار المثّالين ومن أعماله أحد أعمدة جسر إسكندر الثالث».

«وكان معى ثلاثة خطابات توصية: أولها من ناظر المدرسة بالقاهرة إلى المسيو كوتان الذى كان عارفا بحضورى. والثانى من الأمير يوسف كمال إلى مصور تركى يعرفه اسمه «غالب بك». والثالث: من سكرتير المدرسة إلى عثمان باشا غالب».

«أما أصحاب الفندق فكانوا فى الصباح غاية فى اللطف وسألونى عن منامى، كالعادات الفرنسية، وسألتهم عن عنوان أستاذى، وذهبت إليه فكان اللقاء حسنا جدًّا وكان يسكن فيلا وهو رجل طويل منيف فى الرجال كان له أكبر تأثير فى نفسى. وعرضت عليه صور أعمالى فى المدرسة فأسدى إلىّ نصائح فهمت بعضها ولم أفهم البعض الآخر. ولما كنت قد وصلت فى إجازة الصيف فقد نصحنى بالذهاب إلى أكاديمى من أكاديميات الفنون الحرة أعمل فيها حتى تفتح المدرسة أبوابها وكتب إلى المدرسة بقبولى وهو شرط لدخولها لابد منه. وذهبت إلى غالب بك المصور التركى فلم تكن لمقابلته نتيجة تستحق الذكر».

«وبعد الظهر ابتدأ شعورى يتحسن عن باريس لأننى خرجت إذ شجعنى أصحاب الفندق على المسير فى الطرقات الجميلة، وكان أول شارع بذهنى هو «بولفار رسباى» فبهرت من جماله. وقصدت أكاديمى «كولاروسى» وهى من أقدم الأكاديميات ولم أكن متعودا بعد على الحياة البوهيمية لأننى استأت من قدم البيت وعدم وجاهته، وكنت لم أدرك بعد معنى الفن للفن».

(٨)

أجادت الدكتورة سهير القلماوى الحديث عن فكرة بعثة الدراسة الحرة وهى بعثة أتيحت لها فى باريس فأعلت من شأن ثقافتها دون أن تكلفها توتر الامتحانات والشهادات.

«وجاء المنعطف الثانى الهام فى حياتى، وهو إغراء بعثة إلى باريس فريدة فى نوعها. فقد كانت تنص على أنه ليس المطلوب منى أداء أى امتحان طوال أربع سنوات، وأن لى حرية السفر على نفقة البعثة إلى إنجلترا وألمانيا للاطلاع. كل ذلك للتحضير لدرجة الدكتوراه على أن أعود للامتحان فى القاهرة».

«وهنا كانت الفائدة الأعظم تعلمت الكثير على طريق البحث والتأليف «الأكاديمى» ورأيت أساتذة تركوا فى نفسى أروع الآثار. أذكر على سبيل المثال «كاريه» الذى أكرر قولته لى إلى اليوم لطلابى: «لست حريصا على أن تعطينى إجابة صحيحة عن السؤال، وإنما حرصى كل الحرص أن تسألنى السؤال الصحيح».

«كم ذا يحتاج الجديد أن يتعلم كيف يسأل، وعن ماذا يسأل، قبل أن يحرص على الرد الصحيح على السؤال المطروح!».

(٩)

أما المخرج الكبير الفنان صلاح أبوسيف الذى تعلم فى باريس قبيل بداية الحرب العالمية الثانية فيشير باعتزاز إلى أنه تعلم الفن الحقيقى فى باريس.

على أن الأمر الطريف الذى واجهه صلاح أبو سيف فى أول عهده بباريس كان وجوده بمفرده فى قسم كان كل العاملين فيه من الجنس الآخر:

«وفى باريس ذهبت إلى استوديو «كلير» الذى يعتبر من أهم استوديوهات العالم، وبدأت فى دراسة المونتاج، وهناك شعرت بالوحدة الشديدة، فكل العاملين معى كانوا من الجنس الآخر، مما دفعنى للالتحاق بقسم آخر، هو الإخراج، وقابلت مخرجا تعامل معى باعتبارى أفريقيا من المستعمرات، وظل على هذا الحال إلى أن قام بتصوير مشهد، فى أحد أفلامه يدور فى أحد المقاهى، وأحسست بأن هناك شيئا غير صحيح فى المشهد وأخبرته أن الممثلة التى تتنكر فى زى رجل قد تصرفت كامرأة، وليس كرجل، مما جعله يعيد إخراج المشهد وكان هذا بداية لأن أكون قريبا منه».

(١٠)

ويشير الأستاذ صلاح أبو سيف إلى فرصة التعلم الذاتى الذى يمكن للمقيم فى باريس أن يكتسبها بسبب وفرة العلم والفن من حوله.

«فى تلك الفترة كانت سينما «دورسلين» تعرض برنامجا لمدة أسبوعين، بشكل تجريبى، كأن

تعرض أفلاما من ثقافات مختلفة لمخرجين قرأت عنهم ولم أتمكن من رؤيتها بعد، مثل فيلم «المدرعة بوتمكين». فقد تمكنت من رؤية المشهد الشهير الذى يدور فى سلم الأودسا، وكانت هذه السينما الحقيقية، فقد كنت أدون ملحوظات على الأفلام، وخاصة المونتاج، وما إلى ذلك، وقد أدركت أن المونتاج هو أساس صناعة السينما.

وارتبطت بالحياة الباريسية إلى أن قرأت يوما خبرا مثيرا عن اندلاع الحرب. وأنا الذى تصور أن المفاوضات السياسية سوف تنتهى إلى السلام».

«وبدأت القنابل تسقط على باريس، وكان ذلك بداية الفزع بالنسبة لى، وبدأت أدخل المخابئ خوفا من القنابل، وتولدت لدى حاسة الشعور بسقوط القنابل، حيث كنت أشعر بدنو سقوط القنابل فأهرب إلى الملاجئ».

(١١)

ويعترف صلاح أبو سيف بأنه تعلم فى باريس أيضا فن الهوى، وذلك على النحو الذى أجاد هو نفسه تصويره فى الفيلم الشهير «شباب امراة» المأخوذ عن رواية أمين يوسف غراب، ومع أننا معشر القراء قد نرى أن المؤلف لم يترك الفرصة للمخرج كى يضع مثل هذه التفصيلات، فإن صلاح أبوسيف نفسه يعترف بأنه قدم فن الهوى فى هذا الفيلم على نحو ما تعلمه من خلال تجربة عاطفية فى باريس:

«بدأت شوارع باريس تخلو من الرجال، حيث ذهبوا جميعا إلى الحرب، وكنت أتصور أن الحرب سوف تنتهى. ولكن الوقت طال وعرفت أن الباخرة «النيل» قادمة من أجل جمع المصريين، وسافرنا بالقطار إلى مارسيليا واستغرقت الرحلة أربعة أيام. وفى القطار كانت هناك مجموعة من الألمان تتحدث فيما بينها بحماس. وسألنى أحدهم عن الساعة بالألمانى فرددت عليه بالألمانى، مما جعلهم يتصورون أننى فهمت كل هذا الكلام السرى الذى كانوا يتبادلونه.. وكانت أعجوبة فعلا أن أتمكن من الهروب».

«كان علينا الانتظار تسعة عشر يوما كاملة للإبحار من مارسيليا فوق ظهر الباخرة، واحتشد فى المركب أغلب المصريين الذين كانوا فى أوروبا، ومنهم طه حسين وزوجته، وأحمد الصاوى محمد، وراح الحديث يجمعنا، ما أمتعه من حديث فى أوقات الانتظار!».

«أصبح على أن أترك ورائى أول قصة حب فى حياتى، حيث تعرفت أنا الشاب الصغير إلى امرأة فى الخمسين. علمتنى كأنها معلمة كيف يكون الحب والجنس. وقد استلهمت من قصتى معها فيلم «شباب امرأة» فيما بعد».

(١٢)

أما الدكتور محمد إبراهيم الفيومى فقد عبر بوضوح عن معاناة المصريين من بعض الفرنسيين اليهود بعد هزيمة ١٩٦٧، وكان الفيومى قد قضى فترة تجنيده فى الجيش وخرج منه فى ١٩٧٠ وسافر إلى بعثته فى سبتمبر ١٩٧١:

«فى فرنسا لحقتنى مشاعر الهزيمة، عندما اتخذت سبيلى إلى السربون لأقدم بعض أوراق طلبتها منى إدارة كلية الآداب، ثم كلمتنى المسجلة بعدما تصفحت الأوراق قائلة: لماذا لا تشترك فى البطاقة الصحية؟ فقلت لها: إننى عضو بعثة الدولة المصرية، وأمورنا الصحية تشرف عليها سفارتنا ـ ما قلته هو الواقع ـ لكنها نظرت إلىّ وقالت: إذا كانت مصر فقيرة فإن فى استطاعة إسرائيل أن تقوم بالمصاريف عنك فى كل شىء».

«نظرت إليها بامتعاض وانصرفت مستغرقا فى حال مصر وحال الشباب وفكرة أنى كنت معه بالأمس مجندا، يؤرقنا مصير مصر، وكيف أصبح حالنا مثارا للسخرية».

«ذكرت الواقعة لزميل لى فقال: إنها يهودية، وليست فرنسية، انظر إلى أنفها تجده طويلا، ذكر ذلك كصفة مميزة لليهودى».

«ضحكت وذكرت الجاحظ حين كان يكتب عن خصائص الشعوب أو الناس أو الأجناس».

(١٣)

نعرف أن العلم والفن يقتضيان بالطبع تقاليد موازية تنظم لطلابهما حياتهما وتحررها من رواسب الماضى. وقد تكون هذه التقاليد نظمًا أو تجليات بوهيمية، وقد تكون نظمًا عسكرية، ومن حسن الحظ أن أصداء باريس حافلة بهذه وتلك.

و هذه تجربة مثيرة مع التقاليد البوهيمية عاشها طالب الفنون الجميلة الفنان محمود مختار

رغم أنفه فى باريس حين أصبح طالبا فى الفنون الجميلة، وهو يحكى عن تقاليد تلك المدرسة العريقة حديثا يذكرنى بما كان يحدث معنا فى الأسابيع الأولى فى مدرسة المتفوقين النموذجية وقسمها الداخلى فى مصر، ولست أقول: مع الفارق، فقد كنا فى واقع الأمر لا نقل عبثا ولا إجرامًا عن هؤلاء الفرنسيين:

«ومن تقاليد المدرسة التى لا تستطيع إدارتها معها حولا أن الطلبة الجدد يعاملون بطريقة الجندية، أى أن طالب السنة الأولى يظل فيها خادم طالب السنة الثانية. وهكذا يحكم عليه بأن يكنس الورشة ويعد المواد التى يشتغل منها زملاؤه القدماء. وهناك «الكابورال» رئيس الجدد كالشاويش يوزع الأعمال. أما (le massier) فهو الألفة وأمين صندوق الورشة وممثلها فى الحفلات. والجدد يخدمون القدماء فى الداخل والخارج حتى إنهم ينقلون عفشهم إذا انتقلوا من بيت إلى بيت، فهم كالعريف فى الكُتاب إذا أراد دخانا أرسل التلميذ يشتريه له، ونحو ذلك».

«وتحدث فى هذا الصدد حوادث غريبة بوهيمية حقًّا، ومن ذلك أن أحد القدماء صعد إلى مسكنه بالطابق الثالث يدخن غليونه، وأمر التلميذ الجديد بأن يفسح الطريق لبصاقه، فوقف الجديد فى وسط الشارع وبيده عصا طويلة يصد بها الناس عن المرور فى دائرة بصاق القديم!... والناس ينظرون ويعجبون ويزدحمون ويضحكون، لأنهم يعرفون شذوذ طلبة الفنون».

«ولا مندوحة للجدد أبدا من الطاعة مهما كبرت سنهم وطالت لحاهم!... ولابد للجديد من أن يدفع للقدماء تكاليف دعوة يشربون فيها نبيذا ويأكلون محارا (huitres) وخبزا وسردينا بحسب المبلغ الذى يتبرع به الجديد وبحسب مقدرته. والشهر الأول عادة كله دعوات ومآدب، وكل جديد يدفع بدوره تبعا لذكائه أو غفلته وخفته أو ثقله!».

(١٤)

ويلخص محمود مختار تجربته فى أول عهده بالمدرسة فيقول:

«ولما وصلت نبهنى أستاذى إلى هذه الدعابات التى تقسو أحيانا حتى يموت منها بعض الطلبة لإسرافهم فى المزاح (إذ وضعوا مرة تلميذا جديدا فى المجارى حتى اختنق)، ووضعوا آخر فى برميل وتركوه يصرخ فيه على رصيف السين حتى ساقه (رجل) الشرطة إلى القسم. أما إذا غضب الجديد فالويل له، وقد يؤدى الأمر إلى خروجه من المدرسة نهائيا».

«ولقد كان نصيبى كجديد أن يحكم على بالتجرد من جميع ثيابى وأبقى عاريا تماما، ولم تكن تنفع مقاومة أو شفاعة. فرضخت من فورى كما رضخ زملاء لى من قبل فشدوا وثاقى إلى كرسى وأنا عار كما ولدتنى أمى ووضعوا على رأسى تاجا من الورق على شكل فرعونى وكتبوا عليه «رمسيس الثانى». وحملونى على نقالة رفعوها على أكتافهم وخرج موكب الطلبة فى جموع غفيرة يتقدمنا من يفسح لنا. وسرنا كذلك من المدرسة إلى عرض الطريق حتى كنيسة «سان جرمان دى بريه» فى آخر شارع بونابرت. وكان المطر يتساقط رذاذا فوصلنا إلى قهوة بونابرت والناس من حولنا ينظرون ويبتسمون وهم جميعا يعرفون عادات مدرسة الفنون الجميلة وتقاليدها.

«وهناك وضعونى كما أنا على خوان فى المقهى وطلبوا طعاما وشرابا وجعلوا يرموننى بالفضلات وقشر المحار وكأنهم يقدمون إلىّ - على طريقتهم - الزلفى والقرابين».

«وتولى اثنان منهم إطعامى لأننى كما سلف القول كنت مقيدا وكان بيننا طالبات أيضا مشتركات فى هذا الاحتفال».

«هذا، وغير هذا مما يشابهه ومما اشتركت فيه، قد خلق فىّ للحال انطلاقا من قيود المحافظة وحبا فى الحرية وتكسير أغلال الكلفة... فهو يعد من الانقلابات التى طرأت على نفسى وكان لها أثر فيها طول حياتى».

(١٥)

يستعيد طه حسين ذكرى السعادة التى خيمت على مشاعره فى حياته فى باريس فى سفرته الثانية للدراسة مقدمًا وصفا دقيقا ينعكس فيه أثر حبه الذى استولى عليه وشوقه لصاحبته التى عرفها، وارتبط بها، ويقول:

«كانت حياة الفتى فى باريس حلوة مرة، ويسيرة عسيرة، لم يعرف فيها سعة ولا دعة، ولكنه ذاق فيها من نعمة النفس، وراحة القلب، ورضا الضمير ما لم يعرفه من قبل، وما لم ينسه قط».

«كانت حياته المادية شاقة، ولكنه احتمل مشقتها فى شجاعة ورضا وسماح، لم يكن راتبه يتجاوز ثلثمائة من الفرنكات، كان يدفع ثلثيه فى اليوم الأول أو الثانى من كل شهر ثمنا لمسكنه

وطعامه وشرابه، وكان يدفع نصف الثلث الذى كان يبقى له أجرا لسيدة كانت تصحبه إلى السوربون مصبحا وممسيا، ليسمع فيها دروس التاريخ على اختلافها، وتقرأ له بين ذلك ما شاء الله من الكتب حين لا يخلو له ذلك الصوت العذب الذى كان قد رتب له ساعات بعينها فى النهار، ليقرأ له فيها روائع الأدب الفرنسى».

«وكان يستبقى فضل راتبه بعد ذلك لينفق منه على ما يعرض من حاجاته اليومية، فأما أمر كسوته فقد تركه إلى الله لأن راتبه لم يكن يتسع له».

(١٦)

ومن المفيد أن نتأمل فى مدى الجدية التى سيطرت على حياة طه حسين فى سنته الأولى فى باريس.

«وأنفق السنة الأولى من حياته فى باريس لا يخرج من بيته إلا إلى السوربون، فكان سجينا أو كالسجين، لم يذكر قط أنه خرج من باريس إلى ضاحية من ضواحيها فى أيام الراحة التى كان رفاقه ينفقون فيها أيام الآحاد».

«ولم يذكر قط أنه اختلف إلى قهوة من قهوات الحى اللاتينى التى كان رفاقه الجادون يلمون بها بين حين وحين، وكان أكثر الطلاب المصريين يختلفون إليها أكثر مما كانوا يختلفون إلى الجامعة، وإنما كان يلزم بيته فى أيام الراحة لا يفارقه، وربما خلا إلى نفسه اليوم كله فى غرفته، إلا أن يلم به ذلك الصوت العذب فيقضى معه ساعة من نهار».

(١٧)

ويتحدث طه حسين عن باريس التى حرم فيها من الفن مستغنيا عنه بالحب فيقول:

«وكان يسمع أنباء المسارح ومعاهد الموسيقى واللهو، وكانت نفسه ربما نازعته إلى بعض هذه المسارح ليسمع هذه القصة أو تلك، ولكنه كان يرد نفسه فى يسر إلى القناعة والرضا، وكيف السبيل إلى غير ذلك وهو لا يستطيع أن يذهب وحده إلى حيث يريد، ولا يستطيع أن يدعو غيره إلى مرافقته، ولا يريد أن يكلف غيره من الناس عناء مرافقته من جهة، وتحمل ما

تقتضيه هذه المرافقة من النفقات من جهة أخرى، ولم تكن ذكرى أبى العلاء تفارقه فى لحظة من لحظات اليقظة إلا أن يشغل عنها بالاستماع إلى الدرس، أو إلى القراءة».

«كان يذكر دائما قول أبى العلاء فى آخر كتاب من كتبه : إنه رجل مستطيع بغيره، وكان يرى نفسه مستطيعا بغيره دائما، ويحتمل فى سبيل ذلك من غيره هذا الذى يتيح له الاستطاعة ألوانا من المشقة، وفنونا من الأذى بدون أن ينكر منها شيئا، فهو مكره على احتمالها إكراها، وهو مخير بين أن يقبل ما يكره من غيره من الذين كانوا يعينونه على ما يريد أو يرفضه فيضطر إلى العجز المطلق اضطرارا، ويضيّع حياته فى باريس، بل حياته كلها فى باريس أو غير باريس».

(١٨)

و يتحدث طه حسين حديثا يبدو وكأنه غير مقصود لذاته عن السيدة التى كانت تصحبه للسوربون مقابل أجر ويبدو وكأنه يريد أن يبين عن الفارق بينها وبين محبوبته:

«وكيف السبيل له إلى أن يذهب إلى السوربون ليسمع الدروس فيها إذا لم تعنه على ذلك هذه السيدة التى لم يكن من معونتها بد، والتى كان ترفق به أحيانا وتعنف به أحيانا أخرى، وربما صحبته من البيت إلى الجامعة بدون أن تلقى إليه كلمة، أو يسمع لها صوتا، وإنما كانت تعطيه ذراعها وتمضى معه صامتة كأنما تجر متاعا لا ينطق ولا يفكر، حتى إذا بلغت قاعة الدرس أجلسته إلى مائدة من موائدها، وانصرفت عنه إلى خارج القاعة فانتظرت حتى إذا فرغ الأستاذ من درسه أقبلت عليه فأقامته من مجلسه، ومضت به إلى بيته، حتى إذا انتهت به إلى غرفته أدخلته فيها فأغلقت من دونه الباب وهى تقول له فى صوت خاطف: إلى اللقاء فى ساعة كذا من النهار».

«وربما اعتذرت هذه السيدة فى مهمتها بعد أن تجد له سيدة أخرى تقوم مقامها، فكانت هذه السيدة الثانية ثرثارة تؤذيه بحديثها المتصل أكثر مما كانت تلك تؤذيه بصمتها الملح».

(١٩)

هكذا نرى طه حسين وقد اعترف بأنه لم يتح له أن يتعلم فنون باريس وإن كان قد شغل عنها بالعلم، لكن توفيق الحكيم (فى المقابل) تعلم كل هذه الفنون، وروى لنا انطباعاته وهو يتعلمها

بجدية وحب وتجرد، وعلى سبيل المثال فقد قدم لنا فى الفصل السادس من كتابه «عصفور من الشرق» وصفا بديعا لمسرح الشاتليه وما نال فيه من حظ الاستماع إلى عزف موسيقى الفنان العظيم بيتهوفن:

«وجاء الظهر فتغدى فى مطعم صغير، ثم أسرع إلى مسرح الشاتليه ليصغى إلى ذلك الرجل الذى أصغت إليه أجيال من البشر! هنالك وجد الفتى المسرح يعج بالناس، فاتخذ له مجلسا متواضعا فى أعلى المكان، وجعل يشاهد، من علٍ، ذلك البحر العجاج من نساء ورجال فى القاعة والشرفات!

ولم يمض قليل حتى ظهر الموسيقى جابرييل بيرنيه رئيس الفرقة، بعصاه الصغيرة، ولحيته البيضاء القصيرة! فسكن الضجيج فجأة، وارتفعت الأيدى بالتصفيق، ثم خيم على المكان سكون قدسى كسكون المعابد، وشعر محسن بالخشوع».

«وتحركت يد الأستاذ بالعصا، فإذا بيتهوفن يتكلم بلغته السماوية، قوية أول الأمر فى ذلك الـ «أليجرو» الجليل، حلوة بعد ذلك كأنها أصوات الملائكة الصافية فى ذلك الـ «أندانت» الهادئ، ثم فياضة بالسرور الداخلى، من ذلك الـ «سكرتزو» المشرق، إلى أن تنتهى منه إلى ذلك الفرح المتفجر: من أضواء النغم الـ «برستو» الأخير!

«نعم، إن هو إلا وحى السماء يتكلم، بمختلف المشاعر العظيمة التى رفعت الإنسانية إلى هذه المرتبة!».

«لقد بدأ محسن يدرك ويحس حقيقة تلك الكلمة التى قرأها فى نيتشه: «كل عواطف البشرية السامية فى السيمفونية الخامسة!»».

«وترك محسن المسرح وهو شارد القلب شأنه شأن بقية الناس! مازالت نفسه هائمة فى ذلك الجو العلوى! وخرج إلى الطريق فاستقبله الهواء البارد ضاربا وجهه، فعادت فى الحال إليه نفسه».

(٢٠)

وفى الفصل الثامن عشر من «عصفور من الشرق» يعاود الحكيم الحديث عما استمع إليه ذات مرة من الموسيقى العالية فى مسرح الشاتليه:

«وانقطع محسن فجأة عن القراءة، فقد أطفئت الأنوار، ووقف المايسترو ينقر بعصاه نقرا خفيفا على قمة مصباحه الأخضر، تنبيها للعازفين».

«بدأت الأوركسترا تعزف مقدمة «بارسيفال»: نغمة ترتفع منفردة أول الأمر، لا يصحبها شيء، كأنها هو صوت واحد يتكلم، وسط سكون السكون! صوت، فى عين الوقت، إلهى وبشرى! وتمضى تلك النغمة حاملة فى أعماقها بذور الألحان الدينية، التى تتركب منها القطعة، إلى أن تقابلها تلك الأقوال المقدسة: خذوا، وكلوا، هذا هو جسدى!... خذوا، واشربوا، هذا هو دمى!... ثم يسمع من «الكواتيور» شبه رعدة مبهمة، بين عديد من الأنغام السريعة المتعاقبة، ورنين الصناجات المكبوت، كأنها هو صوت طليق ممتد، يخفت شيئا فشيئا تحت قباب كاتدرائية عظيمة!».

«واستمر الأداء، ومحسن ليس على هذه الأرض إلى أن أشار الأستاذ بعصاه إشارة الانتهاء، وانطلقت الأيدى بتصفيق كأنه الرعد، فتنبه الفتى، وقام الناس يدخنون فى فترة الاستراحة ويتحادثون.. وبقى محسن واجما فى مكانه، ولمح على المسرح حركة دخول أفراد مجموعة المنشدين «الكورس» من سيدات ورجال.. ينتظمون فى أماكنهم، فرفع الكتيب إلى عينيه ليقرأ ما قيل عن قطعة بيتهوفن ويهيئ نفسه للمثول بين يدى هذا القلب العظيم، كى يسمع منه، ويفهم عنه! وقرأ الفتى هذه الصفحة:

«وبلغ فن بيتهوفين فى السيمفونية التاسعة غاية ما يستطيعه بشر فى عالم البناء الصوتى، ولقد أخرج هذا العمل فى تلك المرحلة من حياته ـ التى ابتلى فيها بالصمم ـ كارثة جاء ذكرها فى وصيته التى كتبها فى أكتوبر سنة ١٨٨٢م، على أثر أزمة قوية من أزمات اليأس».

(٢١)

من زاوية تربوية وفنية أخرى يحدثنا يحيى حقى فى كتابه «حقيبة فى يد مسافر» عن عناية الباريسيين بالنبات والحيوان من خلال سوق خاصة وجدها مقامة على نهر السين فى مقابل سور الكتب القديمة، وهو يصف هذه السوق فيقول:

«صف من الدكاكين أمام الكوبرى الجديد فى باريس تبيع صنفين وليس غير، الأول: بذور نباتات الحدائق المنزلية أو الأصص، وأزهارها، وأعشابها: أى بذور تطلب تجد، الزبائن أغلبهم

كبار السن.. والثانى: مجموعة من الحيوان الذى يربى فى رفقة الإنسان، إما طليقا وإما حبيسا، من أول الكلب، والهر، والنسناس، وأنواع لا عدد لها من الطيور: مزقزقة، أو ناطقة، أو شادية، أو كأنها من بهرجتها ذاهبة إلى حفل عرس، إلى الفأر الأبيض، والسحلية، والبومة، بل رأيت وطواطا معروضا للبيع فى عز النهار، و-آخر المتمة- أشكالا وأجناسا من سمك الزينة، فيه البليد المطمئن يمشى الهوينى خلى البال، وفيه من يجرى كالمسروع الخائف، فجأة إقباله وإدباره، (ترتفع هنا نسبة الصبيان بين الزبائن.. إما وحدهم وإما مع آبائهم)».

«الزحام فى هذه الدكاكين على أشده، الدرز على الدرز».

(٢٢)

ويعزو يحيى حقى تعطش الباريسيين إلى هذه الطبيعة المتمثلة فى الحيوان والنبات، إلى ما فرضته الحضارة الحديثة من قسوة المعيشة فى البيوت ذات الجدران، وهو يمضى فى هذا التفسير إلى أن يتحدث عن علاقة العلم بالتجربة فيقول:

«ومن العجيب أن إحساسى بهذا الجوع فى هذه الدكاكين زاد لأنها قبالة الأكشاك المصفوفة على ضفة السين لبيع الكتب القديمة (سور الأزبكية نسخة منها) مؤلفات كثيرة مصورة تدرس الحيوان والنبات، فكأنما العلم عن يمينك، والتجربة عن يسارك، والعلم المنصوص جفاف وتلقين بالوساطة، واتصال ذهنى فى فراغ، والتجربة حياة نابضة، وعناق، وحب تلقائى يشارك فيه القلب، فالعلم لا يغنى عن التجربة ولا يبطلها، بل يزيد الشوق إليها تأججا وبصيرة».

(٢٣)

فى باريس لاتجد معاهد العلم وأجواءه فقط لكنك تجد أيضًا العلماء والفلاسفة والرواد فتصحبهم وتتلقى العلم عنهم بطريقة مباشرة.

تحدث الدكتور أنور عبد الملك عن حياته فى باريس وما حفلت به من إنجازات ومعاشرة عن قرب للمفكرين العالميين مثال:

«أذكر بعميق التأثر الشاعر الروائى فيلسوف علم الجمال الفرنسى العظيم «لويس أراجون Aragon» سعدت بمواكبته بين ١٩٦١ - ١٩٧٣، كان حقيقة أميرا لشعراء هذا القرن، أميرا فى مقامه وقامته، شديد التعلق بالحضارة العربية الأندلسية وكذا بمكانة الحزب الشيوعى الفرنسى فى المقاومة وتحرير بلاده، علمنا أنه «لا يوجد شىء مؤكد للإنسان، لا قوته، ولا ضعفه، ولا قلبه، ليس ثمة حب سعيد»، وكذا أنه على الإنسان «أن يظل ملكا لآلامه» - الإيجابية المأساوية على حد تعبير الكاتب المسرحى السوفييتى المعاصر «فيشنيفسكى».

«كنا معا فى باريس دوما حول صديقى الأعز أثناء سنوات المنفى «١٩٥٩ - ١٩٧٣»، الفنان والكاتب التركى العظيم «عابدين دينو Abidine» آخر سلالة أسرة «عابدين» الذى جاء ضابطا شابا برتبة اليوزباشى مع قائده الشاب «محمد على» لحماية مصر من الفرنجة عام ١٨٠١، ومن ثم أطلق اسم عابدين على ما أصبح فيها بعد قصر الوالى ثم الملك فى القاهرة».

«كان مرسم عابدين فى باريس، حتى رحيله منذ أشهر، يدا فى يد مع دارنا فى «الحى الثالث عشر» بيت المصريين ملتقى رجال الفكر والقلم، والشخصيات السياسية العالمية، وبفضله وإلى جواره تفتحت أمامى أبواب عالم الفن وخاصة التصوير العالمى من أوسع الأبواب، منذ تعرفت إليه بواسطة صديقتنا المشتركة «إنجى أفلاطون» فى ١٩٦١، ثم كان بعد ذلك خروج «ناظم حكمت» من سجون تركيا، ثم المنفى فى الاتحاد السوفييتى وكان هو وعابدين فى باريس يدا واحدة.

«أنشد ذات أمسية قصيدة «بورسعيد» فعبرت عن صدى عمله العظيم فى الوجدان المصرى، طالبنى أن أقدم بعض الأمثلة فأنشدت قصيدة زميل النضال الشاعر الثورى الكبير «كمال عبدالحليم».

«هذه أرضى أنا وأبى مات هنا وأبى قال لنا: مزقوا أعداءنا».

«أيام حارة، صاغت تواكب الرومانسية والثورية فى قطاع واسع من الفكر الفلسفى والسياسى فى الشرق المعاصر».

(٢٤)

انتقل إلى حديث جميل فى وصف اليونسكو ومكانتها فى باريس، وهو حديث لم يكتبه واحد من الذين تلقوا تعليمهم فى باريس ولا بالفرنسية، ولكنه واحد من الذين قدر لهم أن يختاروا فى أعلى مناصب اليونسكو عضوا فى المجلس التنفيذى لها. وهو الصديق الدكتور على فهمى خشيم الوزير الاتحادى الليبى الذى اختير لهذا المنصب فى نهاية السبعينيات وهو يلخص تجربته فى هذا المنصب وفى ذلك المبنى على نحو جميل حيث يقول:

«هذا هو اليونسكو إذن».

«بناء مهول يرتفع جملة طبقات ويحتل مساحة شاسعة فى قلب العاصمة الفرنسية، تحيط به الحدائق الغنَّاء والشوارع النظيفة المشجرة ويعج بمئات الموظفين والعاملين ومكاتب مندوبى الدول وسفرائها ومئات من أمينات السر الحسناوات (هكذا يتحدث خشيم عن السكرتيرات بهذا اللفظ العربى) من كل لون وجنس. ممرات تفضى إلى مكاتب، ومكاتب تؤدى إلى دهاليز، ومسارب إلى ردهات وصالات وقاعات يفقد المرء فيها سبيله إن لم يصحبه دليل.. أو دليلة!».

«اتخذت مكانى فى قاعة «المجلس التنفيذى» للمنظمة التى تشبه حدوة الحصان تصطف حولها المقاعد على اليمين وعلى الشمال ويتصدرها رئيس المجلس وإلى جانبيه مساعدوه ومعاونوه من الموظفين المكلفين بنظام العمل ومتابعة المناقشات وعرض الموضوعات وفى الدور العلوى غرف صغيرة للمترجمين الفوريين إلى لغات العمل المعتمدة: الإنكليزية والفرنسية والروسية والصينية (ودولها أعضاء دائمون فى مجلس الأمن، وممثلوها أعضاء دائمون فى مجلس اليونسكو التنفيذى أيضا) ثم الإسبانية والعربية».

(٢٥)

يقدم الدكتور على فهمى خشيم اليونسكو تقديما مختلفا وذكيا من خلال ممثلى الدول المختلفة الذين تعاقبوا على تمثيل هذه الدول فى عضوية المجلس التنفيذى لليونسكو:

«أرجعت البصر كرتين. هنا كان يجلس الفيلسوف البريطانى برتراند رسل صاحب المؤلفات المثيرة فى الفلسفة الحديثة وفى الرياضيات بمشاركة زميله وايتهيد. كنت معجبا برسل، وقد قرأت له بعض كتبه، منها: «لماذا لست مسيحيا». و«فى مديح الكسل» و«المنطق والتصوف» وسمعنا كثيرا عن المحكمة التى أنشأها فى السويد واضعا الإدارة الأمريكية فى قفص الاتهام بسبب جرائمها فى فيتنام. ولعل آخر عمل للفيلسوف العجوز ذلك البيان الذى أصدره عن فلسطين ونشر على سعة صفحة كاملة فى صحيفة (الجارديان) يؤيد فيه حق الفلسطينيين فى أرضهم وحريتهم».

«هنا كان مقعد الشاعر اللاتينى بابلو نيرودا الذى غنى للفلاحين البائسين والعمال المساكين وبقية «الغلابة» مقهورين فى الأرض، ومع هذا يكتب مذكراته فيقول: «أشهد أنى عشت».

«وهناك الكاتب الحالم بعالم أفضل فى كتابه «الجزيرة» والداعى إلى مستقبل للبشر فى «عالم شجاع جديد» البريطانى «ألدوس هكسلى».

«ثمة كرسى آخر احتله الشاعر الفرنسى بول فاليرى ويحتله الآن ابنه الذى نسيت اسمه، وقد اختير الابن، لا لميزة فيه ولكن لسمعة والده المدوية، ونحن نقول فى أمثالنا: «يقوم الجمل ويخلف البعر».

«فى هذا الكرسى إذن كان الفلاسفة والأدباء والعلماء والمفكرون أعضاء المجلس التنفيذى ممن ذكرت ولم أذكر، يخططون لثقافة جديدة وتفاهم وتعاون بين الشعوب ولفهم أعمق لمشكلاتها. كانوا يحلمون.. وليس بالضرورة أن تتحقق الأحلام».

(٢٦)

ومن حسن حظنا أن حرص على فهمى خشيم على ذكر أسماء الزملاء العرب فى فترة عمله فى اليونسكو :

«من العرب كان فى المجلس فى السنتين الأولين (مدة العضوية أربع سنوات وفى مؤتمر اليونسكو العام كل سنتين تنتهى عضوية نصف الأعضاء ويُنتخب غيرهم ليقضوا المدة المقررة):

السيد سالم (الأردن) ومحمد محمود محمودو (موريتانيا) وقد استبدلا بمحمود المسعودى (تونس) ومحمد الفاسى (المغرب)».

وانتخب فى سنة ١٩٧٦ إلى جانب كاتب هذه السطور: شمس الدين الوكيل (مصر) وحسان مريود (سوريا) فكان خمسة من الخمسة والأربعين عضوا من العرب».

(٢٧)

ونأتى إلى موضوع لا يمكن لنا أن نتجاوزه وهو علاقة أجهزتنا الرسمية بمبعوثينا وشبابنا فى باريس، فقد كانت صدى لحالة الحرية واحترام الإنسان فى مصر، فنحن نقرأ فى مذكرات الدكتور حسين فوزى ما يدلنا على عناية فائقة بذلها مدير البعثة التعليمية الدكتور الديوانى من أجل تيسير تكوينه العلمى على نحو فريد ومتميز ظهر بوضوح فى شخصية ذلك العالم الجليل.

والحق أن هذا الاهتمام كان امتدادا لما سار عليه حكام أسرة محمد على من اهتمامهم المباشر بطلبة البعثات.

وعلى سبيل المثال فهذا هو طه حسين يتحدث عن لقائه بالخديو عباس حلمى عقب حصوله على «دكتوراه» الجامعة المصرية وقبل بعثته، وما تطرقت إليه المقابلة من نصيحته له ألا يدرس الفلسفة إذا ذهب باريس:

«وقد أدخل (يتحدث عن نفسه بضمير الغائب) على الأمير، فإذا هو يلقى رجلا كغيره من الرجال الممتازين الذين كان يلقاهم فى الجامعة من أعضاء مجلسها، وإذا هذا الرجل يلقاه فى سماحة سمحة بريئة من التكلف، وإذا هو يأخذ بيده فيجلسه على أريكة ويجلس عليها إلى جانبه، مهنئا له بفوزه، متمنيا له الخير والنجاح فيما يستقبل من الأيام، سائلا إياه بعد ذلك عما يريد أن يصنع بعد أن ظفر بدرجته تلك».

«قال الفتى: سأحاول السفر إلى فرنسا لأدرس الفلسفة أو التاريخ».

«قال الأمير: إياك والفلسفة.. فإنها تفسد العقول!».

«وكان الإنكار قد ظهر على وجه الفتى، فمضى الأمير قائلا: بل هى لا تفسد العقول

وحدها، ولكنها تفسد الذوق أيضا، لقد ذهبت إلى باريس منذ سنتين، واستقبلنى الطلاب المصريون هناك، وكانوا جميعا حاسرى الرؤوس فى أيديهم قلانسهم إلا واحدا منهم كان حاسر الرأس كزملائه ولكنه لم يكن يمسك قلنسوة، وإنما كان يمسك طربوشا فى يده. فلما سألت عن هذا الفتى أنبئت بأنه منصور فهمى، وبأنه يدرس الفلسفة، فعلمت أن الفلسفة قد أفسدت عليه عقله وذوقه جميعا، فصاحب الطربوش لا يرفعه عن رأسه ولا يأخذه بيده حين يلقى الخديو، وصاحب القلنسوة لا يتركها على رأسه وإنما يأخذها بيده فى مثل هذا المقام، ولكن صاحبنا كان يدرس الفلسفة!».

«ثم أغرق فى ضحك متصل، والفتى (أى طه حسين نفسه) مُغرق فى الوجوم».

«فلما سكت عنه الضحك، قال وهو يضع يده على ركبة الفتى: ستسافر إلى فرنسا، ولكن لا تدرس الفلسفة، وعليك بالتاريخ، فإنه علم عظيم».

(٢٨)

وتأتى بعد هذا فترات نعرفها ونعرف ما كانت تتميز به، حتى إننا نجد مكتبنا الثقافى (فى الغالب) محل تجاهل كل مَنْ كتبوا عن الفترات التى قضوها من حياتهم فى فرنسا، لكن الدكتور يحيى الجمل عندما كتب الجزء الثانى من كتابه «قصة حياة عادية» كان حريصا على أن يشير إلى أن فاروق حسنى وزير الثقافة عمل تحت قيادته فى المكتب الثقافى المصرى فى فرنسا، وأنه عرف منه (لا من غيره) أنه على علاقة بالأجهزة الأمنية فى مصر، وأن مهمته تتخطى حدود وظيفته فى المكتب الثقافى.

وقد أثارت عبارات يحيى الجمل حين كتبها موجة استثمرها اثنان من المصريين بذكاء فورى، أما الأول فهو فاروق حسنى نفسه الذى سرعان ما استثمرها فى تدعيم موقفه وعلاقته بالأجهزة الأمنية، مبينا أنه يتعرض للهجوم بسبب هذه العلاقة، وأنه يحتاج دعم هذه الأجهزة، ولم تبخل عليه الدولة بالدعم فجعلت «دار الهلال» تقيم ندوة وتكرم فيها فاروق حسنى تكفيرا عن الخطإ غير المقصود، ومن عجائب الأقدار أن حديث فاروق حسنى فى هذه الندوة سُجل، وتناقلت التسجيل أجهزة عالمية، وكانت عبارات التسجيل بمثابة الدليل الدامغ الذى أضاع على فاروق حسنى نفسه فرصة الوصول إلى منصب عالمى دفعت مصر من أجل وصوله (الخيالى) إليه كثيرا من أموال شعبها المقهور.

أما الشخص الثانى الذى استفاد من عبارات الدكتور يحيى الجمل فقد كان هو الصحفى الذى سارع بإبلاغ فاروق حسنى بالعبارات التى كتبت عنه وهى لاتزال فى دور التجارب المطبعية، وقد نال هذا الصحفى من حظوة فاروق حسنى ما دفعت الموازنة العامة للدولة ثمنه راتبا ومكافآت فوق المجزية، ومناصب ومواقع لم يكن يحلم بها أبدا، فإذا الوشاية تحقق له كل هذا.

(٢٩)

وعلى كل حال فمن المفيد أن نقرأ عبارات يحيى الجمل، وهى عبارات هينة لينة كان من الممكن أن تمر مرور الكرام:

«وفى يوم من الأيام طلب «ف. ح»، الذى كان ملحقا بالمكتب معارا من وزارة الثقافة، مقابلته على انفراد لحديث مهم، فرحب به على الفور، فقد كان «ف» شابا لطيفا خدوما إلى جوار أنه كان فنانا فيه رقة الفنان، ولم يكن صاحبنا يعتبر نفسه بعيدا عن الفن».

«وكان يعرف أن «ف. ح» على صلة وثيقة بالمرحوم سعد وهبة، وكان هو يعرف سعد وهبة ويقرأ له ويقدره، وكان يعرف أيضا أنه وثيق العلاقة بالمرحوم أحمد كامل الذى كان محافظا للإسكندرية، وكان هذا الشاب الفنان يعمل فى أحد قصور الثقافة بها، وقد أصبح أحمد كامل بعد ذلك مديرا للمخابرات العامة، ثم أطيح به بعد فيمن أطيح بهم فى انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١».

«وبدأ «ف. ح» الحديث بطريقته الخاصة، وصاحبنا ينصت إليه كل الإنصات بغير مقاطعة، خاصة بعد أن تبين من بداية الحديث مدى أهميته».

«قال إنه يود أن يصارحنى بأن له مهمة خاصة أكثر من كونه ملحقا معارا من وزارة الثقافة، وإنه حضر دورة فى المخابرات العامة قبل مجيئه إلى باريس، وإن أحد مهامه أن يرصد تحركات الطلبة، وأن يكتب تقارير لمصر».

«أنصت صاحبنا لهذه المفاجأة بقدر غير قليل من الاهتمام ولم يشأ أن يرد مباشرة، لكنه بعد أن فرغ «ف» من حديثه الخطير قال له صاحبنا: لعلك تدرك دقة الأوضاع بين الطلبة فى باريس، والأمور هنا ليست هى الأمور فى القاهرة، والطلبة هنا يعيشون جوا من الحرية بغير

حدود، كذلك فإنهم يعيشون فى قلق شديد، كل يوم يسمعون تصريحات عن عام الحسم، ثم عن عام الضباب، ثم عن امتلاك أمريكا ٩٩٪ من حلول مشكلة الشرق الأوسط، ثم يسمعون عن طرد الخبراء السوفييت، ويسمعون عن الصلف والغرور الإسرائيلى ويدركون أن أرض سيناء لاتزال تحت الاحتلال، قلت: له أنت تعرف أن الطلبة يعيشون ذلك كله ويشعرون به ويتنفسونه كل صباح ومساء، وأن طلابا هذا حالهم لابد وأن يكون التعامل معهم بتفهم شديد، وبصدر واسع، وأعصاب هادئة».

«وأبدى «ف» موافقته على هذا التشخيص لأحوال الطلاب فى باريس».

«ثم قلت له برقة وحسم: أرجو أن تعرف أننى عندما اخترت لأكون مستشارا ثقافيا فى باريس فإن هذا يعنى بالنسبة لمهمتى فى مواجهة الطلبة هنا أننى وزير التعليم العالى ووزير الداخلية ومدير المخابرات، وأننى المسؤول الوحيد عنهم هنا فى فرنسا».

«وساد صمت ثقيل».

(٣٠)

ويعقب يحيى الجمل فيقول :

«وأدرك «ف.» أنه لم يحقق بغيته التى كان هدفها إشعارى بأهميته، بل وجعلنى أخاف منه، أو أحسب له حسابا أكثر من حسابه».

«ومَنْ يدرى لعلنى أكون قد أخطأت فى فهم مقصده، وأنه لم يكن يقصد من وراء حديثه إلا الخير كل الخير، مَنْ يدرى؟».

«وأنهيت الحديث ببعض العبارات التى خففت من ثقل المفاجأة، وأنهيت إليه بعض التكليفات الثقافية، وتمنيت له التوفيق فى إنجاز ما عهدت به إليه من مهام».

«ولكن المشكلة الحقيقية تكمن فى أننى فى الحقيقة لم تكن عندى الوسيلة لأعرف هل استمر أم لم يستمر، وهل أخذ تحذيرى له مأخذ الجد، أم لم يأخذه، استنادا إلى الأجهزة التى كان يتعامل معها».

«وحرصت بعد ذلك على أن تكون العلاقة عادية، بل وطبيعية، وكان حريصا بدوره على إظهار المودة، وكان لديه من الرقة والنعومة ما يمكنه من ذلك، وما أظن أنى كنت أقل منه رقة ومقدرة على التعامل مع مثل هذه الأوضاع».

(٣١)

ولا بد بعد هذه القصة وما فيها من أن نختم هذا الباب بآية جميلة من آيات النبل الإنسانى تتمثل فى سلوك الدكتور محمد صبرى السوربونى الذى أجهد نفسه فى الحرص على تهنئة طه حسين بنجاحه والقيام بهذا الواجب بنفسه على الرغم من أنه هو نفسه لم يكن قد اجتاز الامتحان بنجاح، وهذا هو نص طه حسين:

«وقد أتيح له النجاح».

«وكان الأستاذ الدكتور صبرى السوربونى هو الذى أقبل ذات مساء فرحا يكاد يخرجه الفرح عن طوره، مكدودا يكاد يقطع الإعياء تنفسه لشدة ما جرى بين السوربون وبين بيت الفتى، ولشدة ما أسرع فى صعود السلم إلى بيت الفتى فى الطبقة السادسة، فلم يكد يفتح له الباب حتى أعلن لمن فتح له أن زميله قد ظفر بدرجة الليسانس، ولم يدخل وإنما رجع أدراجه ولم يرد أن يستريح».

«وكان الزميل الكريم قد تقدم للامتحان، ولم يكد ينظر فى النص اللاتينى حتى طواه وقدم صحفه البيضاء وانصرف ضاحكا متمثلا بيته اللاتينى ذاك الذى يصور اليأس والقنوط، فكان رائعا حقا أن يكون ابتهاجه بفوز زميله بهذه الدرجة العسيرة أملك وأشد استئثارا به من إخفاقه هو فى الامتحان!».

■ ■ ■

الباب الثالث

لقاء باريس للمرة الأولى

(١)

لعل أبرع استهلال لهذا الباب هو أن ننقل عن الدكتور حسين فوزى ما وصف به لقاءه الأول بباريس، وقد كان لقاء عاقلا على الرغم مما أحاط به من شبق الشباب:

«وما إن اطمأن قلبى إلى البقاء فى باريس حتى طفقت أبحث عن سكن حرصت على ألا يبعد كثيرا عن الجامعة، وفى هذا تقول مذكراتى: «أريد أن أستقر فى مكان لأعود إلى هدوئى الداخلى، وأبدأ حياة منتظمة».

«كان لقائى الأول بباريس مضحكا بعض الشىء، عندما اندفعت جماعة «الأحبا» ذات صباح عابس من محطة ليون إلى فندق صغير بالحى اللاتينى فى شارع من أصغر وأقصر شوارع الحى، ومازلت أذكر ليلة حاولت العثور عليه، فدرت حوله قرابة ساعة ما بين بولفار سان ميشيل وشارعى جى ـ لوساك، وسوفلو!».

«والفندق مازال قائما، وقد طالعت فوق بابه فى العام الماضى (النص فى كتاب «سندباد فى رحلة الحياة» الذى صدر فى سلسلة اقرأ فى يونيو ١٩٦٨) لوحة أظنها وضعت حديثا تشير إلى أن عالم التحليل النفسانى سيجموند فرويد سكن فى هذا المكان سنة كذا، والغالب أنه قد حدث هذا فعلا فى مستهل القرن».

«ومما ضايقنى أن اضطرتنا صاحبة الفندق إلى مشاركة كل اثنين فى غرفة، وكان من نصيبى

فتى شامى لا علاقة له لا بالبعثة ولا بالتعليم، وقد نسيت الهدف من رحلته، لصق بنا منذ صعودنا إلى الباخرة «الجنرال متزنجر» حتى بلغنا الفندق فى باريس».

«وعندما جن الليل التأم شمل «الأحبا» وسرنا فى الطرقات نشاهد مواكب الكاترينات، فإذا شريكى فى الغرفة وقد رأى الشباب يهجم على الفتيات لاختطاف القبلات، نزل كالجائع العطشان يقبل هذه وتلك ويسخر من تزمتى ووقارى!».

«عدت إلى غرفتى وحيدا، أحمل هم ذلك الرفيق الصفيق، عندما يعود من تجواله، وإذا به يدخل علىّ وأنا فى أول إغفائى، ويغير ملابسه تأهبا للسهرة، ويزعق منفعلا: «كيف أنام فى باريس والبلد ما بتريد تنام»، وطار إلى خارج الفندق، ولم يعد فى ليلته، بل لم أر وجهه منذ ذلك الحين!».

(٢)

ونأتى إلى الزاوية الثانية التى من حقها أن تتقدم كل الزوايا، ولا تتأخر، لأنها تعبر عن نظرة عميقة ناضجة للنحات العظيم، وفى رأيى أن هذه التجربة تستحق منا بعض التأمل والتقدير وبعض التعلم الحقيقى، لأنها قصة وصول الفنان العظيم محمود مختار:

«كان سفرى فى أواخر عام ١٩١١ مبعوثا من سمو الأمير يوسف كمال لدراسة الفنون الجميلة بعد إتمام دراستى بالقاهرة. وكنت لا أكاد أعرف من الفرنسية شيئا يذكر وقد أوصوا بى فرنسيا وزوجته، كانا مسافرين معى. وكان ذلك من بورسعيد، ولى من العمر تسع عشرة سنة».

«ولما جاء الظهر ودقّ جرس الطعام سار الناس أفواجا، وكانت الباخرة كبيرة آتية من الهند، فتبعتهم فإذا بهم يجلسون إلى الموائد فلم أجد شجاعة من نفسى للجلوس إلى جانبهم إذ زعمت أنه ربما لم يكن لى فى ذلك حق!... ورجعت أدراجى. وبعد ذلك سألنى صاحبى الفرنسى: هل أكلت؟ فأجبته بالإيجاب!».

«وكذلك لما جنّ الليل وكنت جائعا ودق الجرس نزل الناس أيضا فذهبت ورأيتهم فخجلت وتراجعت. فلاحظ رئيس الخدم ذلك فأجلسنى فى مكانى. وإذا إلى جانبى سيدة سألتنى أن

أقرب منها الخبز فأمسكت قطعة منه بيدى وأعطيتها إياها فوجدتهم يتبادلون النظرات وأدركت أننى ارتكبت خطأ فاحشا وكان يجب أن أمسك السلة وأقدمها كلها، وأن أرى كيف يفعلون وأقلدهم، وهذا هو أول درس لى فى غربتى. وهاتان حادثتان بقيتا فى نفسى حتى اليوم».

«فلما جئنا مارسيليا أدهشتنى خيولها الضخمة وبيوتها المرتفعة. وكنت فى سكة الحديد بصحبة رفيق الباخرة».

(٣)

ويواجه محمود مختار باريس بشعور سيئ فرضته عليه الرحلة، لكنه سرعان ما يتخلص منه:

«ووصلنا باريس ليلا. فكان أول شعور نالنى منها سيئا جدا. واتخذت مركبة ذات حصان واحد، كانت مركباتنا (أى الحناطير المصرية) أحسن منها بكثير وكان لدى عنوان فندق صغير فاخترقت المركبة شوارع ضيقة وأزقة حقيرة من محطة ليون إلى شارع دويان أمام باب «البون مارشيه» تماما».

«وزاد الفندق فى سوء ظنى بباريس وأضاع كل ما كنت أمنى النفس به. لأن صاحبته ووكيلها قابلانى باستهتار لصغر سنى وأعطيانى غرفة أرضها حجرية وأعطيانى شمعة!... فدهشت جدا ألا يكون فى باريس كهرباء!... لأن فنادق الإسكندرية عندنا كان فيها كهرباء!».

«ومع ذلك كنت فى انتظار مدرسة الفنون الجميلة، تهون عن نفسى ما لقيته».

«ولو كنت قد قصدت باريس لأتنزه لهربت من أول ليلة، لأن أساتذتنا بالقاهرة كانوا دائما يحدثوننا عن باريس حتى فتنا بباريس».

(٤)

وهذه زاوية ثالثة تتمثل فيما وصف به الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه «الحمد لله هذه حياتى» ملامح تجربته الأولى مع ما رآه من تسارع الحياة الفرنسية ابتداء من الحركة والسير، وكان هذا العالم الجليل قد وصل باريس ناضجا متزوجا متخرجا:

«ونزلنا مارسيليا، ويبدو أن الوقت ـ الذى نزلنا فيه ـ كان وقت انصراف العمال للغداء، لقد رأيت السرعة فى كل اتجاه، ونشاط الحركة فى كل ناحية، ورأيت النساء والفتيات وكأنهن يقفزن فى سيرهن من السرعة، كما كنّ يتحدثن فى سرعة أيضا، وهن فرحات، مستبشرات، سعيدات، يضحكن فى سرور وبشاشة».

ولست أدرى لماذا تواردت ـ على ذهنى ـ صور من الشعر العربى، تصور الجمال فى النساء العربيات.. وثب إلى ذاكرتى قول ذلك الشاعر الذى يعبر عن المثل الأعلى فى جمال المرأة، بقوله:

«مشى القطاة.. ونطقها إيماء».

«إن المرأة هنا لا تمشى مشى القطاة، وليس نطقها ـ كما يقول الشاعر ـ إيماء.. فأين إذن نؤوم الضحى؟».

«إن كل شىء هنا يوحى بالنشاط، والحركة والسرعة».

«والرجال فى سرعة دائبة، وحركة مستمرة، ونشاط وحيوية دائمين».

«وهذا الذى رأيته فى مارسيليا رأيته فيما بعد فى كل مكان توجهت إليه».

«وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله، فإنه كان يسير، والصحابة من خلفه كأنهم يعدُون».

«ورحم الله عمر بن الخطاب، كان إذا مشى أسرع».

«وهل تنهض الأمم بالكسل والخمول؟».

(٥)

ونأتى إلى زاوية رابعة تمثلها التجربة التى أصابت صاحبها واصابتنا معه بكثير من الحيرة، وهى تجربة الدكتور عبد الرحمن بدوى، الذى عاش حياته كلها محبا لباريس، حتى إنه قضى الجزء الأخير من حياته فيها مقيما إقامة شبه دائمة، ومن الطريف أن رحلته الأوروبية الأولى إلى أوروبا قد توجهت به إلى ألمانيا وإيطاليا فى ١٩٣٧ إبان عطلة الصيف، وهكذا فإنه لم يزر باريس

إلا بعد ٩ سنوات من معرفته الأولى بأوروبا، وقد كنت أعجب لحالى أنى لم أعرف باريس إلا بعد ٥ سنوات من معرفتى بألمانيا.

يصور لنا الدكتور عبد الرحمن بدوى قصة لقائه الأول بباريس على نحو واقعى يحمل خبرات السنين، وروح الشيخوخة، لكنه مع هذا لا يخلو من روح الشباب وتمرده على ما يراه مخالفا لحلمه السابق.

ولنقرأ هذا النص الجميل فى الجزء الأول من مذكرات عبد الرحمن بدوى وهو يعبر فيه عن الإحباط والقنوط اللذين يشعر بهما من تضاؤل القيمة الشرائية لراتب الأستاذ المصرى فى مواجهة ارتفاع أسعار باريس:

«وكانت رحلتى الأولى إلى باريس فى يوم السبت الثانى والعشرين من شهر يونيو سنة ١٩٤٦، على متن طائرة تابعة لشركة إير فرانس، ولم تتوقف الطائرة إلا فى تونس، ووصلت باريس حوالى الساعة السادسة مساء، وتوجهت مباشرة إلى فندق لوتسيا (٤٣ شارع ريسبايل فى القسم السادس) لأنه كان يقيم فيه آنذاك زميل وصديق هو الدكتور مصطفى زيور، وكنت قد كتبت إليه أخبره بحضورى إلى باريس، فاستقبلنى عند مدخل الفندق، ولما أتممنا عملية التسجيل فى الفندق، صحبنى للبدء فى تعريفى بباريس: كيف استعمل «المترو»، وللتجربة ركبنا الخط الرئيسى الذى يمر من محطة سفر - بابليون التى عندها يقوم فندق لوتسيا».

«ونزلنا فى محطة بيجال، ومررنا فى الشوارع المحيطة بها، وهى كلها تزدحم بملاهى الليل، واكتفينا بالتجوال نصف ساعة فى حى بيجال».

«ثم عدنا إلى فندق لوتسيا، حيث أقمت فى الغرفة رقم ١٢١، أى فى الطابق الأول، وهى غرفة ذات حمام، وسعرها آنذاك ٣٥٠ فرنكًا فرنسيًّا قديمًا، أى ما يعادل اليوم ثلاثة فرنكات ونصفا، فهل تعلم أيها القارئ كم سعرها اليوم؟ سبعمائة فرنك فرنسى جديد، أى أنها زادت مائتى مرة فى خلال أربعين عاما! هذا بينما راتب عضو هيئة التدريس فى الجامعات المصرية لم يزد إلا مرتين اثنتين خلال هذه الأعوام الأربعين!!».

(٦)

ويتكرر الاحباط «المادى» فى صباح اليوم التالى لكنه لا يعوق الدكتور بدوى عما عرف به من الجد والاجتهاد:

«وفى الصباح الباكر، بعد فطور ردىء، كانت القهوة فيه من الشيكوريا المحمصة، سرت فى شارع سفر، ثم شارع فيوكس كولومبير، حتى بلغت كنيسة سان سولبيس، فدخلتها، وكان اليوم يوم الأحد، فشاهدت جانبا من القداس، ثم خرجت عن يسار لأبحث عن معهد سان سلبيس الدينى الذى تعلم فيه رينان من سنة ١٨٤١ إلى سنة ١٨٤٥».

«لكنى وجدت مكان المعهد قد احتلته مراقبة ضرائب Hotel des Finances فمضيت إلى شارع بونابرت الذى تمتد عليه هذه البناية، وصعدت فالتقيت بشارع فوجيرار، وهنا تذكرت عبارة رينان فى كتابه: ذكريات الطفولة والشباب» التى يقول فيها: لقد أمضيت فى باريس عامين لم أعرف فيهما من باريس إلا شارع فوجيرار، لأنه الشارع الطويل جدا، وهو أطول شارع فى باريس، إذ يبدأ من ميدان السوربون ويستمر حتى نهاية باريس عند ضاحية إيسى، الذى كان يسلكه رينان فى ذهابه من معهد سان بولبيس إلى ضاحية إيسى حيث يوجد بيت إقامة الطلاب المنتسبين إلى معهد سان سولبيس».

«وخطر ببالى أن أسلك هذا الشارع على قدمىّ، ومثلما كان يفعل رينان، لكننى رأيت أن هذا ليس وقته آنذاك، فلأُؤَجِّل ذلك إلى فرصة أخرى، خصوصا وقد رأيت نفسى أمام حديقة اللوكسمبورج التى قرأت عنها الكثير».

(٧)

وهذه زاوية خامسة من زوايا الرؤية التى تعكس الانطباع الأول عن باريس:

روى إميل زيدان قصة زيارته لباريس لأول مرة فى حياته على نحو ينبئ بما كان الآباء المؤسسون يعنون به من تثقيف أبنائهم حتى من قبل أن يكون هؤلاء الأبناء قادرين على الحكم الصائب على الأمور.

«عندما انتهيت من الدراسة أراد والدى -رحمه الله- أن يكافئنى على ما بذلت من جهود فى سبيل الحصول على الشهادة فسألنى عما تصبو إليه نفسى فأجبت فورا: السفر إلى باريس. فقد كانت باريس فى نظرى جماع المتع والمحاسن، وأى شاب لم يحلم بباريس ولم يتق لزيارتها؟».

«زرت إذن باريس فى تلك السنة - ١٩١٢ - للمرة الأولى... ولكن أتدرى أى أثر تركت فى نفسى؟ كانت لباريس فى مخيلتى صورة مثلى، صورة جمعت من البهاء والرواء ما لا يمكن أن يحققه الواقع مهما حسن».

«فلما وطئت أرضها وجلت فى شوارعها اعترانى شىء من الخيبة : أهذه هى باريس التى حشوت ذهنى بسحرها وفتنتها؟ لقد توقعت أن أنزل مدينة «سماوية» يسكنها صنف من أشباه الملائكة وإذا بى بين أناس كالناس، وطرق كالطرق، ومنازل كالمنازل - إذا بى فى مدينة بشرية ليس فى مظاهرها ما يتفق وتلك الصورة التى صورها خيالى الساذج».

«ولكنى زرت باريس بعدئذ غير مرة وعرفت كيف أفهمها وكيف أحبها. فلباريس نواح كثيرة، بل هى عدة مدن فى مدينة واحدة... ففيها الجد واللعب، والترف والشقاء، والفضيلة والفساد، والماضى والحاضر، فيها أجمل الجمال وأقبح القبح، فيها أسمى ما وصل إليه الإنسان، وأدنى ما هبط إليه».

(٩)

أما الزاوية السادسة التى هى أكثر الزوايا شيوعا فى أحاديث الشفاهة فهى تلك التى سجلها باقتدار قلم أستاذنا توفيق الحكيم حين تحدث عن شعور المصرى أو الشرقى الذى سرعان ما يشعر بالحياء أو الخجل حين يرى مظاهر العواطف المشبوبة فى باريس لأول عهده بها فقال:

«ولم يقطع عليه تأمله غير حركة فتى وفتاة من أهل باريس يتعانقان غير حافلين بعاذل أو رقيب! فازور محسن عنهما برأسه! غير راض أن تعرض العواطف هذا العرض، فى الشوارع والطرقات، فتبتذل وهى التى ينبغى لها أن تحفظ فى الصدور كما تحفظ اللآلئ فى الأصداف».

(١٠)

وبعد هذه التصويرات التى رسمت المشاعر المثالية والأكاديمية مع الشبابية فى نسيج واحد قدمه الدكتور حسين فوزى، وفى نسيج آخر قدمه الفنان محمود مختار ثم مشاعر التجربة الأولى فى السن الناضج للشيخ عبد الحليم محمود، والدكتور عبد الرحمن بدوى، والسن المبكر جدا لإميل زيدان، وبينهما توفيق الحكيم فى لمحاته بين هذا وذاك، فإنى أعتقد أن أكثر التصويرات حياة وواقعية وصدقا فى وصف الوصول إلى باريس بعقلية مصر ونفسيتها والتعامل معها لأول مرة هو ما صور به الأستاذ أحمد الصاوى محمد قصة وصوله وتوليه المسؤولية قائدًا لبعثة عمال العنابر، وقد أورد الأستاذ الصاوى هذه القصة فى كتابه باريس، مشيرًا إلى أن هؤلاء كانوا تسعة شباب موفدين من مصلحة السكك الحديد المصرية إلى إنجلترا للتخصص فى الصناعات الميكانيكية، وقد نشرت صورة لهم فى باريس، وقص أمر زيارته لباريس على النحو الطريف والجميل الذى تميز به أسلوبه الشائق:

«وصل بنا القطار فى الساعة التاسعة صباحا فنزل إخواننا بعثة العنابر لا ينتظرون الشيالين بل يبادرون بشهامة فينزلون عفشى إلى الرصيف حتى جاء من حمله، وخرجنا من المحطة وكنت قد احتطت لنفسى لأننى مكثت سنوات أسمع عن برد باريس وصقيعها وثلجها، فوضعت معطفين لا معطفا واحدا فكأنها جبة وعباءة!.. وضعت معطف السهرة الأسود السميك ووضعت فوقه معطف الخريف «الجبردين».. ونزلنا فى ٧ يناير، فى قلب الشتاء، فإذا الهواء منعش، وإذا الشمس ساطعة!».

«فسألتهم، هل الدنيا برد؟! قالوا أبدًا.. إنها حر!! فصدقت حينئذ نفسى! وتنفست الصعداء وخلعت أحد المعطفين!».

«وكان مما استلفت نظرى عندئذ تلك الكرات الذهبية الكبيرة المعلقة فيها «شرابة» كبيرة سوداء كأنها زر الطربوش العربى... ووجدتها تتكرر على حوانيت بعينها فعلمت أن الحلاقين قد اتخذوها شعارا لهم حتى تلفت الأنظار إليهم. وترى من آخر الطريق فيقصدها من هو فى حاجة إليهم».

«وكذلك لفت نظرى علم أحمر يتكرر بشكل واحد فإذا هو علم «المصبغات».

«والمفاتيح الذهبية الكبيرة التى كنت قد ترجمتها فى «الزنبقة الحمراء» دون أن أدركها تماما، رأيتها عندئذ فإذا هى علم على «الحدادين».

«وأشكال ضخمة من الزجاج الأحمر تشبه «السيجار» الزينوبيا فوق المقاهى وتنار ليلا فإذا هى رمز حوانيت التبغ حيث تباع أيضا طوابع البريد».

«وهكذا جعلنا نتصفح وجوه الناس ووجوه الأماكن وابتدأنا نلحظ ونفطن ونقارن وندرك ما وصلنا إليه فى بلدنا وما نحن بحاجة إليه».

(١١)

وسرعان ما يلتفت الأستاذ الصاوى إلى طرائف الموكب المصرى الذى تولى هو نفسه قيادته فى باريس:

«وكان الموكب، موكبنا المصرى شائقا... كان يلفت الأنظار حقًّا، لأن أكثرنا كان يضع «الكسكتات» وهى قلانس السفر التى لا يضعها فى باريس غير العمال.

وكان أكثر من واحد من الإخوان يحمل معه طربوشه «وكان حريصا على ذلك الطربوش حرصه على روحه... وقد خشى أيضا على مكواه وهو يعلم أنه لا سبيل إلى مكوى الطربوش فى إنجلترا فحمله فى علبته الصفيح.. فكنت ترى فى الموكب علبة طربوش من الصفيح الأحمر، وأخرى من الصفيح الأصفر، وثالثة من الصفيح الأزرق».

«وكان لا بد لنا من تناول طعام الفطور. فدخلنا قهوة ملأناها وملأنا قلب صاحبها سرورا. وطلبت لهم القهوة باللبن (Cafe au lait) فأصلح لى الجملة وقال لى (Cafe Creme) أى أن عندهم لا يقولون كما نقول فى مصر قهوة اللبن بل قهوة القشدة. وقد عرفت بعد ذلك أن سبب هذه التسمية أنهم كانوا قبل الحرب يضيفون إلى القهوة القشدة. حتى جاءت الحرب فأخذت هذا «الخير» من القهوة مثلما أخذت الخير من كل شىء».

«ولكن صاحب القهوة لم يكن ينتظر تشريف هذه القافلة مقهاه الصغير فى رصفة برسى، بجوار محطة ليون. وسمع لغتنا ولهجتنا فاستهتر. وقال: إن بيع اللبن محظور بعد الساعة

العاشرة. ونظرت فإذا الساعة لما تبلغ العاشرة بعد. ونظرت فإذا الرجل فى يقينى ساخرا منا. فنهضت معبرا له عن أسفى. ونهض الجميع. وكانت قرقعة فى الموائد والكراسى. لأن عشرة أشخاص قد نهضوا دفعة واحدة يخرجون».

(١٢)

ويصف الأستاذ الصاوى ملامح الإرباك المصرى والارتباك الصاوى فى المقهى الباريسى:

«ودخلنا بعد ذلك مقهى آخر من مقاهى العمال، أو بالأحرى هو مطعم من مطاعمهم التى يسلقون لهم فيها اللحم والأرنبيط (هكذا كان الأستاذ الصاوى يكتب ما تعارفنا على كتابته الآن بالقرنبيط) . فأحسنوا وفادتنا. وكانت بنت صاحب المقهى تخدمنا. وانبرت لذلك فى رقة وظرف وانعطاف. وكانت قد كشفت عن ذراعين هما ورد ولبن. واستبد الإخوان. فواحد منهم يطلب إلى أن أوصى له بالشوكولاتة، والثانى بالكاكاو، والثالث بالشاى، والرابع بالقهوة، والخامس بالجبن والزبد والمربى إلخ إلخ».

«وكان لابد من ترجمة هذا كله... وكانوا فرقا وشيعًا... فاثنان منهما يدفعان معا .. وثلاثة يدفعون معا .. وأربعة يدفع كل منهم عن نفسه!... فأنظر نقودهم وأضبط حسابهم وأخلصهم من أنفسهم، ثم أخلصهم من أصحاب المقهى!... وكان أسهل من ذلك كله الدفع لهم!!».

(١٣)

ثم يصور الأستاذ الصاوى قصة طريفة قد لانتعجب من تفاصيلها لأننا نعرفها حق المعرفة، ولكننا مع ذلك نعجب بقلم الأديب الفنان الذى يصورها على هذا النحو الجميل الدقيق:

«وكان أحدنا مريضا، أصابه دوار الباخرة ولبث فيها مريضا وسافر فى القطار أربع عشرة ساعة مريضا ونزل باريس وهو مريض، وكان ساخطا متذمرًا شاكيًا مستثقلًا نفسه علينا متألما من تعبه ومشيه.

وكان لابد لنا من أن نأخذه إلى الطبيب، ولكن ما حيلتنا أول وصولنا باريس؟ فتذكرت عنوان

طبيب هو شقيق زميل لى فى مصلحة المناجم والمحاجر التى كنت موظفا بها. ومعى خطاب له. ولكن لابد من فتح الحقائب لنجد الخطاب. والحقائب تركناها فى «الأمانات» بمحطة ليون».

«وكنت أذكر أنه «الدكتور عابد» ويسكن شارع لافاييت. فسألنا عن هذا الشارع رجل البوليس فدلنا على «الأمنيبوس» الذى يقودنا إليه. فأخذناه. وإنى أشفق من وصف حسابنا مع الكمسارى وحساب الكمسارى معنا. وكانت بيد أحدنا ورقة بخمسة فرنكات، أو زعم أنه كانت فى يده خمسة فرنكات، فلم يجد فيها شيئا!... وكنا حديثى عهد بالنقود لابد أن نقرأ عليها عددها ونقلبها وجها لظهر... ونتردد فى الاختيار بينها».

«وصلنا إلى ميدان الأوبرا ورأينا دار التمثيل الذائعة الصيت زرقاء سوداء كأنها النحاس الصدئ... فدهشنا.. كان ذلك جديدا علينا.. وتساءلنا لماذا لا ينظفون الأوبرا... وبعد ذلك فهمنا أن لطابع الزمن قيمته عندهم. فهم يقدسون كر الغداة ومر العشى وما تصبغ بآثارهم ودور فنونهم من ألوان ... ويحترمون فعل الدخان وفعل الشمس وفعل المطر وفعل الثلج».

(١٤)

ونمضى مع الأستاذ الصاوى وهو يسير فى شارع لافاييت على نحو ما لاتزال رموزنا المصرية أو الشبيهة بها تسير جامعة فى سيرها بين الاندهاش والتعبير عنه، والفوضى وتكرارها، والسعادة ومظاهرها، والحيوية وتدفقها:

«جعلنا نسير فى شارع لافاييت. وزعمنا أنه شارع مثل شوارعنا لا نلبث أن نجد فيه بغيتنا. والقافلة على ما يجب أن تتخيل من قلانس ومن أزياء متنافرة الألوان مع الوسط الذى تسير فيه، ومن علب الطرابيش المصنوعة من الصفيح الأحمر والصفيح الأزرق والصفيح الأصفر... وفى وسطنا ذلك المواطن الشاحب المريض ضيق الصدر بنفسه وبنا وبالناس جميعا».

«وإذا بهذه القافلة لا تعرف كيف تسير «على بعضها» لأن كل شىء كان يلفت النظر: النساء، والمحال التجارية، والسيارات والجو، والمترو، والضجيج، والحركة، والعاملات... فإذا بعضنا يسير على رصيف، والآخرون على رصيف آخر... واذا بعضنا يقف أمام واجهة

حانوت، متأملا معجبا مندهشا أو مستنكرا، والبعض الآخر قد ساروا شوطا وخلفوه وراءهم.. والمريض يزداد مرضا».

«وشعرت أنا قائدهم بأننى المريض حقا، لا المريض. وشعرت بأن شارع لافاييت - وهو فعلا من أطول شوارع باريس - لا ينتهى. وشعرت بسخف قيادتى وذل جهلى. وضاقت فى عينى باريس واستنكرت هذه الجلبة وهذه الحركة وهذه الشوارع التى ليس لها آخر وهذا السير على غير هدى».

«وهدانى الله إلى أن أتجه إلى أجزخانة. فدخلتها ودخلها ورائى منهم ثلاثة.. أربعة.. خمسة... وسألت عن «الدكتور عابد» وهل يعرفونه، وكان السؤال فى نظرى بديهيا إلى درجة تدعونى الآن إلى الابتسام من سذاجته إذ كنت أعتقد أنهم سيجيبوننى من وحى الخاطر وسيقولون لى: إن الدكتور عابد جارنا وأنتم لا بد من مواطنيه.. والحمد لله على السلامة وكيف حال أهل مصر».

«ولكنهم مع ذلك كانوا مثال الدماثة ورقة الطبع. ففتحوا أمامى لدهشتى كتالوجا ضخما يضم آلاف الصفحات وأخرجوا باب «شارع لافاييت». ونظروا فى هذا الباب حرف «ع A»... وأخرجوه للحال فقالوا لى: نمرة ٨٣».

(١٥)

وتتواصل المغامرات التقليدية المحدودة الطريفة:

«وخيرونا بين ركوب الأمنيبوس أو المشى ثلاث أو أربع محطات أخرى. فاستخرنا الله فى المشى. وكيف يمكن أن أرضى بغير ذلك وأنا أعرف مشكلة انتظار الأمنيبوس واستحالة وجود عشرة محلات فى مركبة واحدة. بل واستحالة وجود محل واحد فى أحوال كثيرة. وأعرف مشكلة العد والصرف والحساب... وأعرف مشكلة الاثنين اللذين حسابهما معا، والثلاثة الذين حسابهم معًا، والأربعة الذين كل منهم يحاسب على حدة!».

«سرنا على مضض. وقد بدأنا نتعب فعلا. ونتعب عن حق بعد سفر ١٤ ساعة بسكة الحديد ليلا

لم نكد نذوق فيها النوم إلا سِنة... ونتعب لجهلنا بكل ما حولنا. وجهلنا بما ينتظرنا... وكنا عطاشى لا نجد كوب ماء... ولا يوجد باعة شربات فى حوانيت.. أو باعة عرقسوس فى الطرقات!».

«ووصلنا بعد لأى وعذاب.وسألنا البوابة فأخبرتنا بأن الدكتور عابد فى الدور الأول إلى اليسار. ووجدنا أمامنا عاملا يدق الجرس يحمل صندوقا من زجاجات مياة فيشى وإفيان... ونظرت الخادمة إلى تلك القافلة تملأ درج البيت... وسألتها عن الدكتور... وإلى جانبى مريضنا... فإذا هو منصرف عن داره لوجوده بالمستشفى. وإذا هى لا تنتظر عودته قبل الساعة السادسة مساء!».

«أف لهذا الطالع!... لقد زاد المرض على مريضنا وزدنا وهنا على وهن وضقنا ذرعا. لا نعرف كيف نتوجه. وكان الظهر قد فات. وبدأنا نشعر بالتعب والجوع. فتذكرت أنه ليس أمامنا إلا حل واحد، هو أن نقصد من فورنا دار البعثة المدرسية المصرية بشارع المدارس رقم ٢٤ وكنت لا أعرف أن «التاكسى» رخيص إلى الحد الذى هو عليه فى باريس فجازفت بميزانياتنا الصغيرة!... وركبنا سيارتين إلى الحى اللاتينى».

(١٦)

نترك باريس ونعود بعد هذه الزوايا السبع إلى طه حسين وهو يتحدث عن حياته فى مونبلييه التى ابتعث إليها قبل أن ينتقل فى سفرة ثانية إلى باريس فيبدو سعيدا راضيا بكل ما فى تلك المدينة.

«واستقبل الفتى حياته فى مدينة مونبلييه سعيدا بها إلى أقصى ما تبلغ السعادة، راضيا عنها كأحسن ما يكون الرضا، فقد حقق أملا لم يكن يقدر أنه سيحققه فى يوم من الأيام».

«وكان يكفيه أن يفكر فى صباه ذلك البائس الذى قضاه مترددا بين الأزهر وحوش عطا، تشقى نفسه فى الأزهر، ويشقى جسمه ونفسه فى حوش عطا، حياة مادية ضيقة عسيرة كأقسى ما يكون الضيق والعسر، وحياة عقلية مجدبة فقيرة كأشد ما يكون الإجداب والفقر، ونفس مضيعة بين عسر الحياة المادية وفقر الحياة المعنوية، ثم يوازن بين حياته تلك وبين الحياة الجديدة التى أخذ يحياها فى هذه المدينة الفرنسية، لا يحس جوعا ولا حرمانا ... إلخ».

(١٧)

ويتحدث طه حسين عن الدور الذى قدر له أن يلعبه وهو طالب جديد فى مونبلييه حديث العهد بفرنسا حيث أصبح حكما فى الخصام الذى يقع بين زملائه بسبب مغامراتهم العاطفية، وهو يعترف أنه أصبح حكما لأنه لم يكن له شأن بالحب حتى ذلك الحين!!

«يحيا الفتى حياة ليست حلوة ولا مرة، ولكنها تُمرر فى أول النهار، وتحلو فى آخره حين كان الفتى يلقى رفاقه ويسمع لأحاديثهم، ويقضى بينهم فيما كان يعرض لهم من المشكلات، وما أكثر ما كان يعرض لهم من المشكلات، ومن مشكلات الحب والغرام خاصة!».

«وكيف تريد فتية من المصريين أن يعيشوا فى فرنسا ويختلفوا إلى القهوات والأندية وبعض ما يقام من الحفلات بدون أن يداعبوا الحب، أو يداعبهم الحب، وبدون أن تقسو عليهم دعابة الحب بين حين وحين؟».

«ومن ذا الذى يستطيع أن يمنع صديقين من أن تروقهما فتاة واحدة؟ وإذا هما يلتمسان إلى لقائها الوسيلة، فإذا أتيح لهما هذا اللقاء ابتغيا عندها مواقع الرضا، ثم لا يلبث أن يكون بينهما التنافس، ثم الخصومة، ثم التلاحى، ثم الفُرقة، أيهما ظفر عند صاحبتهما بالرضا فهو عدو لصاحبه الذى أخلفه الظن، وكذبه الأمل، ولم يقع من نفس الحسناء ما كان يرجو من موقع الرضا والارتياح، ولا تلبث هذه الخصومة بين الرفيقين أن تتجاوز الحب إلى غيره من ألوان الحياة التى كانا يتعاونان عليها، ويشتركان فيها».

«وإذا صاحبنا (أى طه حسين نفسه) يصبح قاضيا بين رفاقه فى شؤون الحب، وليس له أرب فيه، ولا سبيل إليه، وأنى له بشىء من ذلك وهو المكفوف الذى لا يحسن شيئا حتى يعينه عليه معين، وهو لا يرى وجوه الحسان، ولا يعرف كيف يتحدث إليهن، أو كيف يبتغى إلى رضاهن الوسائل، فهو يغدو على الجامعة مصبحا، فإذا راح إلى منزله آخر النهار لم يبرحه حتى يسفر له صبح الغد، والرفاق يلمون به فى آخر النهار وأول الليل، فيختصمون بين يديه ويتخذونه حكما بينهم، وهو يصلح بين المختصمين مرة، ويقضى لبعضهم على بعض مرة».

(١٨)

وهذه زاوية تاسعة أجاد الدكتور محمد إبراهيم الفيومى من خلالها وصف حالة الضياع التى صادفته فى مطار باريس وهى الحالة التى تواجه الذين يسافرون إلى الخارج معتمدين على أن هناك مَنْ يستقبلهم ويهيئ لهم أمورهم ثم لا يجدون هذا المستقبل لسبب أو آخر.

ومن الطريف أن نقرأ هذا التصوير الدقيق والمؤثر الذى يقدمه أستاذ فلسفة أزهرى معاصر درس الأدب وأحبه، فإذا به ينتصر للأدب والصور الأدبية على ما كان عرفه من توقيت الزمن الذى وصل فيه، وعلى ما يراه من مظاهر الطبيعة التى قد تنبئه عن الوقت على سبيل التقريب:

«وفى مطار باريس هبطت الطائرة، وكنت أول مرة أركب فيها طائرة، وأول مرة أخرج من طائرة، فكنت أتعلم من الركاب ما يفعلون ومضيت أفعل مثلهم، وصرت أحاكيهم فيما يبدونه من أفعال حتى وجدت نفسى على باب المطار فى الخارج ومعى حقائبى أجرها على «عجلة» من عجلات المطار، غير أننى كنت أتصور أن علىّ ثمن تأجيرها».

«وعلى باب المطار الخارجى وقفت أنظر هنا وأنظر هناك فلا شمسا أرى، ولا نهارا، ولا قمرا أرى، ولا ليلا، وكأننا بعد الفجر بقليل، أو قبيل المغرب، فلا أدرى تماما فى أى الوقتين نكون، أقبيل المغرب أم بعيد الفجر؟ تاه منى الزمن».

«وعلى رصيف المطار طال انتظارى وتشتتت رؤاى مع حركة باريس الدائبة، وسعى أناسها المتواصل، ونسيت تماما انتظارى الذى طال كثيرا، انتظار ذلك الزميل الذى كلفه أخى وصديقى د. أحمد خضير باستقبالى وأبرق له بموعد الوصول ورقم الطائرة، لم يأت ذلك الزميل، لم يحضر، طال انتظارى، ماذا أنا فاعل الآن؟ إلى أين أتوجه؟».

(١٩)

ثم يتحدث الدكتور الفيومى عما يمكن لنا أن نسميه التجربة المتكررة أو الشائعة التى تنقذ الإنسان المصرى الجديد فى باريس:

«لكنى أحسست بعدما فقدت الأمل فى عدم لقاء زميلى بصدمة، وخارت عزيمتى أمام

تسلل مشاعر الوحدة الأليمة: وحيد فى أرض غريبة اللغة واللسان، وتذكرت أنى تركت زوجتى وقد وضعت مولودها الأول البكر ولدى إبراهيم وهو فى شهره الأول، وانتابتنى ذكريات الهموم، وكدت أن أستسلم لها لولا أن الله تداركنى».

«ومن غير أن أدرى ارتفع صوتى مناديا «تاكسى»، فسألنى عن وجهتى، فتكلمت معه بصعوبة وتفهمنى بصعوبة، ثم أعطيته العنوان.. وحين أحس بغربتى نزل وأعاننى على حالى، وحمل حقائبى وذهب بى إلى المدينة الجامعية، وأخذ يبحث عن ذلك الزميل فلم يجده، فلما رأيت منه ذلك شكرته وحاسبته، وأنزل معى حقائبى ووضعتها بجانبى خارج المدينة الجامعية وجلست بينها واضعا رأسى على يدى، واستغرقنى تفكير عميق فى الحزن الشديد، فلا معرفة لى بذلك البلد تقودنى إلى حيث السكن، ولا زميل يرفع عن كاهلى غبار السفر، وعبء المجهول الذى احتوانى، ولا أدرى إن كان أقبل الليل، أو تفتح الصباح، ولا أدرى إلى متى يطول بى الانتظار».

«وبينما أنا كذلك إذ وقعت عيناى على شاب توسمت فيه الملامح المصرية، فناديته بالعربية فأقبل علىّ وحيانى بالعربية، فقلت له: «أنت مصرى؟» فقال: نعم. فقلت: أتسكن فى المدينة الجامعية؟ فقال: نعم.. أسكن فى المدينة الجامعية، فقلت له: تعرف فلانا؟ قال: نعم، قلت له: أنا ضيفه.. إلخ، فابحث لى عنه، فقال لى: تفضل عندى فى السكن حتى أبحث لك عنه، فأقمت عنده يوما وليلة، وكان شابا مسيحيا يدعى بهاء، فأكرم وفادتى، وخفف عنى عبء الغربة، وشد من عزمى، ودامت علاقتى به فكان صديقا بمعنى الكلمة، وفى الغربة تظهر معادن الرجال».

«ثم جاء أخيرا ذلك الأخ الذى أخذ يتكلم عن سبب تأخره بكلام لا يفهم، فقد أخذت الدرس وأحلت مصادفة لقائى ببهاء الطمأنينة بالنفس، ورب صدفة خير من ألف ميعاد، فطلبت من ذلك الزميل أن يقوم بتعريفى بما يجب علىّ عمله، وصاحبنى حتى ذهبت إلى السفارة، وقدمت أوراقى فى السوربون وفى مدرسة الإليانس فرنسيس».

(٢٠)

وهذه هى الزاوية العاشرة تتبدى فى فقرة طريفة يصور فيها لويس عوض وصوله إلى الحى

اللاتينى عام ١٩٣٧، وهو فى طريقه إلى بعثة فى كامبريدج (بريطانيا)، وهو يتحدث بمنتهى السعادة عن وصوله إلى الحى الذى تشرد فيه زكى مبارك، وأحمد الصاوى محمد، وتوفيق الحكيم، متمنيا أن يصل إلى ما وصلوا إليه من تشرد وكتابة:

«إحنا وصلنا باريس الصبح، ماعرفش الساعة كام، كان أول حاجة عملناها طبعا تاكسى وع اللوكاندة وأرمى العفش وحمام ويالله إحنا أحرار، اللوكاندة اللى نزلنا فيها ـ أنا فاكر كويس ـ كانت ف شارع مونج فى الحى اللاتينى، مش فاكر بكام بالضبط، إنما غالبا حسبة ٢٥ فرنك فى الليلة، افتكر عمار بتاع الجغرافيا (يقصد: الدكتور عباس عمار وزير المعارف فيما بعد) كان معاه عنوانها من الأول لأنى سمعته بيقول إن الدكتور حزين مدرس الجغرافيا (يقصد: الدكتور سليمان حزين وزير الثقافة فيما بعد) بكلية الآداب كان بينزل فيها كل ما كان يفوت فى باريس، دا دليل على أنه يعرفها من الأول».

«الشاهد، أنا كنت مضطرب طول الوقت، فى التاكسى عينى كانت زايغة عاوز أشوف كل حاجة فى مدينة النور فى دقيقة واحدة، كمان لأنى كنت مضطرب لأنى وجدت نفسى فجأة فى الحى اللاتينى اللى ياما قرينا عنه وكنت بحلم بيه ولسه بحلم بيه، الحى اللاتينى».

«أنا فى الحى اللاتينى حاجة تخلى الواحد يضطرب، أبص حوالى ما ألاقيش حاجة تخلى الواحد يضطرب، كل حاجة عادية، برضه ناس لابسين برانيط وشوارع وبنايات، لكن الفكرة، آه الفكرة، وتعمل إيه فى الفكرة، مجرد الفكرة أنى فى الحى اللاتينى اللى اتشرد فيه كل أدباء مصر خلتنى أرتعش، إمتى ياربى إتشرد فى الحى ده زكى مبارك، والصاوى، وتوفيق الحكيم، إمتى ياربى أتشرد وأكتب زى ما كتبوا؟».

■ ■ ■

الباب الرابع

الأخلاق والطباع

(١)

أبدأ هذا الفصل بأقوى نص عربى مكثف عن موضوعه، وهو النص الذى سجله الأستاذ فتوح نشاطى فى مذكراته بعد ثلاثة شهور من وصوله (فى يوم 12 يوليو) مضمنا فيه انطباعه الناضج عن الفرنسيين:

«من كثرة اختلاطى بالفرنسيين من مختلف الأمزجة والعقليات والطبقات، أمكننى أن أكون عنهم رأيًا خاصًا أرجو ألا يكون بعيدًا عن الصواب:

- إن الرجل الفرنسى بقدر ما يبدو إيجابيًّا فى سلوكه بالنسبة لما يمسه شخصيًّا فى حياته الخاصة اليومية، إلا أنه فى وسط الجماعة يبدى اهتمامًا كبيرًا بالمثاليات. وهذا الازدواج يفسر لنا كيف أن الشعب الفرنسى الذى تجرى فى دمائه غريزة الملكية، ينقاد بسهولة إلى النظم الاجتماعية التى تجعل كل شىء فى صالح الجماعة، ولعل هذا يفسر أيضًا النكتة الشهيرة عن الفرنسيين التى تقول: «الفرنسى يحمل كيس نقوده فى يمينه، وقلبه فى يساره».
- «يضاف إلى ذلك الكثير من الملامح المميزة لخلق الشعب الفرنسى التى ورثوها عن أجدادهم الغاليين، ومن أهمها:
- ميلهم الذى لا يقهر إلى المنافسات الشخصية.
- واستعدادهم الفطرى للشجار والعصيان.

- والانتماء إلى حزب من الأحزاب، أو جماعة من الجماعات».
- «ولعل هذا هو السبب فى أن الشعب الفرنسى يرمز له «بالديك» لأنه مغرم بالعراك والغلبة».
- «ويضاف إلى ذلك حبهم المتطرف للبلاغة، وهم فى ذلك أنداد للإغريق».
- «وأعتقد أن من أهم ما يتميزون به حبهم للوضوح، ونفورهم من الرموز والمعميات».
- «ويختلط مع هذه الصفات حبهم للعدالة الذى يتحول فجأة إلى دعوة عنيفة للمساواة بين الناس، وهذا هو صميم روح الثورة الفرنسية».

(٢)

ونبدأ فى تصفح التجارب الخاصة التى تطلعنا عن قرب عن آراء كتابنا فى اخلاق الفرنسيين وطباعهم.

حين تحدث يحيى حقى عن الالتزام الخلقى فى أداء الفرنسيات لوظائفهن فى الحياة، فإنه أجاد تصوير موظفة شركة الطيران الفرنسية باعتبارها نموذجًا بارزًا ومعبرًا عن الجدية فى تعامل الفرنسيين مع الضيوف، ثم تناول نماذج أخرى من حياة الفرنسيات مبلورًا رؤيته الراقية:

«هذه البنت الجالسة فى مكتبها بشركة الطيران».

«ملبسها البسيط: زينتها».

«لا الزينة الفاحشة: ملبسها».

«ليس فى الأوراق أمامها أى اضطراب أو خلل، ليس فى حديثها أى حشو فارغ».

«عليمة هى بدقائق عملها، كأن حياتها هى الأخرى وقف على إتقانه».

«بائعة الزهور العجوز البدينة، التى لم تحلق شاربها لأنه ناعم كالقطيفة، الواقفة سريحة على ناصية طريق، اشتريت منها باقة لا تزيد على ملء اليد من زهور البنفسج، وهى أرخص الزهور، أجاذبها إياها وأستعجلها، وهى تأبى أن تسلمها لى إلا بعد أن تلفها بإحكام، وتربطها بعناية، كأنها تبيعنى أغلى باقة عندها.

لتجارتها أصول لا ترضى لها أن تتكسر، لأى سبب من الأسباب، أو لأى إلحاح بالتساهل، كنت فى نظرها زبونا همجيا، ولكن هذا شأنى، لا شأنها».

«المعاملات كلها كلمة ورد غطاها، لأن البضاعة مفروزة طبقا لمواصفات ثابتة، فلا يختلط فيها الردىء بالحسن، محددة الثمن، بلا فصال ولا غش، لكل صنف مكانه وسعره، بل المدينة كلها كأنها موضبة عن عمد لأناس صم خرس، باعتماد الرجل على نفسه، ودون أن يفتح فمه بسؤال، يستطيع أن يصل إلى جميع أغراضه، ومَنْ شذ لغبائه أو كسله وحماقته، وتطفل على الناس وسأل، لما تطوع له مَنْ لا يعرف بالقول بأنه يعرف، أو بأن يجعل كلامه تخمينا، أو نصف نصف».

«فهو إن لم يجد مَنْ يرشده لا يجد مَنْ يضلله مع الطبطبة بحسن نية على ظهره».

(٣)

ونعود إلى فتوح نشاطى فى بدايات مذكراته وبالتحديد فى يوم ٤ أبريل فنجده يؤكد مبكرا على ما ذهب إليه يحيى حقى فيقول:

«يشيعون عن الفرنسيين أنهم شعب لهو وخفة، وأشد الخلق ميلا إلى الهدم والتجديد ولو عن طريق الثورة، وما أراهم تحت مظاهر الخفة هذه إلا رجال جد وعمل، وهم أكثر الناس محافظة حتى فى تجديدهم، إذ يعلمون تمام العلم أن الحضارة الحقة إنما هى جماع ما راكمته العصور المتعاقبة من جهود كل فرد، وعلم كل فرد، وفن كل فرد، وآلام كل فرد».

(٤)

ثم نعود إلى يحيى حقى وهو يتحدث عن الجانب الخلقى فى تربية الفرنسيين لبناتهم حديثًا منصفًا حيث قال:

«ونسينا أن هذه الشعوب التى حكم عليها جيل مصطفى كامل بالفساد، إنما تعتمد على أسر متحشمة تحافظ على فروض دينها، ولا تسمح لفتاتها أن تخرج مع فتى إلا فى صحبة رقيب من

أهلها، ولا تجيز لفتى أن يأتى لزيارة إلا بحضرة الأسرة، فإذا تكررت الزيارة أكثر من مرتين قالوا له: يا أخينا.. أفصح عن غرضك، إن كان هو الزواج فأهلا وسهلا، وإلا فأرنا عرض أكتافك».

ويستشهد يحيى حقى على صحة رأيه بما فى ثقافته وقراءاته:

«هكذا يروى لويس باستور كيف اقترن بزوجته».

«ويقول ستيفان زفيج فى مذكراته: إنه لم يدرك السبب فى تقدم العلوم فى فرنسا وهو ثمرة جهد متصل وتكريس دائم للنفس، من قبل الدارسين، إلا بعد أن خالط الأسر الفرنسية، وشهد تحشمها والدور الكبير الذى تقوم به الزوجة فى إعداد كل وسائل الراحة الذهنية والروحية لزوجها لأجل أن يتفرغ لعمله».

(٥)

وقد عبر لويس عوض فى كتابه «مذكرات طالب بعثة» تعبيرا دقيقا عن معنى مراقبة الفرنسيين لبناتهم من خلال قصة عابرة حدثت له فى بداية زيارته الثانية «أو بالأحرى الزيارة الأولى غيرالعابرة لباريس»:

«كان مفروض فى البروجرام بتاعى أنى أحضر الكريسماس وعيد رأس السنة فى باريس، وأشوف الفرنساويين بيهيصوا إزاى، قالوا فيه رقص فى العمودية بتاع الحى اللاتينى، رحت لابس ورايح من غير تردد، لقيت صالة كبيرة وفى الصالة ناس كتار، وفرقة المزيكة ف آخر الصالة، لكن كان فيه حاجة غريبة حوالىّ ما شفتهاش قبل كدا فى مراقص إنجلترا».

«لقيت الصف الشمال كله ستات عواجيز بين الأربعين والخمسين، لابسين لبس سهرة لكن ألوان حشمة، وتفصيل حشمة، ما فهمتش إيه الحكاية. فى إنجلترا كنت أحيانا تلاقى فى كل مرقص سبع تمن ستات عواجيز مخلوطين بنسبة معقولة فى جمهور الشباب اللى بيرقصوا مش راضيين يقبلوا الحقيقة الأليمة، أن زمانهم فات، وأن مكانهم جنب دفايات البيوت، برضه تلاقيهم بيشربوا ويرقصوا غالبا مع رجالة من سنهم».

«إن كنت راجل عندك قلب إنسانى تفهم وتعذر، بس تتأسف ع الوقار اللى بيضيع فى صالات اللهو، وإن كنت راجل إحساسك ميت، وخيالك محدود تضحك وتستهزئ كل ما تفوت قدامك واحدة رقبتها مليانة تجاعيد، ولحمها التحتانى مرخرخ تحت الفستان، ورجليها محنية شوية».

«أنا لما شفت الستات الكبار دول قاعدين فى صف واحد قعدت أفكر، دول جايين يرقصوا طبعا، طب وليه مرصوصين كدا؟ دا مش من مصلحتهم».

«لقيت بنت جميلة طويلة باين عليها النعمة، لابسة تللى أبيض مفضفض زى العروسة ليلة الزفاف، وديل فستانها نايم ع الأرض جنبها كأنه كلبها الأمين. كان شكلها من بعيد زى صورة من ريشة رومنى. طلبتها رقصت معايه».

«رقصنا كام مرة حوالين الصالة وبعدين خطر لى أسألها عن الستات العواجيز اللى قاعدين ع الشمال، قالت لى: إن دول شابيرونات مش جايين يرقصوا إنما جايين يحرسوا البنات اللى فى الرقص. فهمت كمان منها إن كل واحدة من الستات العواجيز دول واخدة بالها تمام إذا كانت بنتها أو بنت أختها أو بنت عمتها رقصت مع «الفارس» بتاعها مرتين وتلات مرات، عشان مفروض إن البنت ماترقصش مع شخص واحدة مدة طويلة».

«سألتها: ليه؟ قالت لى إن الولد والبنت إذا رقصوا مع بعض مدة طويلة يمكن يبتدوا يستلطفوا بعض ويعملوا علاقات، ودا مش كويس».

«قلت: معقول وابتديت أصلح الخطوات بتاعتى ع المزيكة وأرقص كونجا زى خلق الله بعدما بوظت لها جزمتها من كتر الدوس والتكعبيل».

(٦)

أما بيرم التونسى فى كتابه «السيد ومراته فى باريس» فقد كان حريصا على أن يقارن بكل وضوح بين الاختلافات فى صور الحضارة متمثلة فى رقى السلوك، والتزام القانون، وكان حفيا بأن يدل مواطنيه المصريين بأسلوب ساخر على بعض عيوب المصريين من خلال المقارنة بالسلوك الفرنسى العام فى الشوارع، أو فى الحياة العامة واليومية، وهو يلجأ فى هذا إلى إدارة

الحوار بين الزوج السيد (مختصا نفسه بهذا الدور) والزوجة التى يسميها مراته فى كتاب «السيد ومراته فى باريس».

وعلى سبيل المثال فإنه يتحدث عما صدم الزوجة، أو ما يصدم الزائر المصرى لباريس حين يرى أهلها من الرجال والنساء يتبادلون القبلات فى الشارع، أو يعبرون عن الحب على نحو علنى، وهكذا يخرج بيرم من انتقاد مظاهر الحب العلنى إلى الحديث عنه كبديل لسلوك السوق المصرية، والطبقات الدنيا فى شتائمهم العلنية بعضهم لبعض.

«أيوه كده اعترفى بالحق.. أهوه آدى إنتى بقى لك هنا مدة طويلة سمعتيش واحد واقف يذكر أعضاء التناسل علنا كدا فى وسط الشارع؟ شفتيش عركة واحدة فى الشارع؟».

«أبدا والنبى».

«بقى نفوت بلاوينا ونيجى هنا نقول بيبوسوا بعض.. طب ياريت نبوس بعض إحنا ونعبط بعض ونعانق بعض بدال ما احنا قاعدين نشتم بعض ونضرب بعض ونبهدل بعض».

«ابقى ألف كتاب فى فن الكلام اللى بتقول عليه».

(٧)

وقد أبدى بيرم التونسى إعجابه بقدرة الفرنسيين على تفعيل القانون فى حياتهم من خلال المحاكم الموجودة فى أقسام البوليس، والتى كانت قادرة على أن تحكم بالقانون فى المخالفات اليومية والمناوشات التى تثور بين الناس، على حين تذهب هذه المناوشات فى مصر لتعطل جهازنا القضائى من دون أن تحصل لصاحب الحق على حقه، مما يدعو فى النهاية إلى اللجوء إلى وسائل أخرى غير القانون.

بينما يحتاج الأمر فى نظر بيرم التونسى إلى سرعة إنشاء محاكم صغيرة للأمور المستعجلة:

«هنا.. كل كركون (أى قسم شرطة) فيه محكمة صغيرة تحكم فى الحاجات الصغيرة اللى زى دى.. مثلا فران حرق صينية، أو مكوجى حرق هدمة أو ضيعها، أو مثلا واحد جاب سمكرى وشغله خمس ست ساعات وحايعطيه أجرة فارغة، الكركون فى الحال يقدر المبلغ ويرغم الراجل على دفع الأجرة المناسبة».

«عندنا الفران يقعد يتغذى من الصينية هو وصبيانه وفى الآخر يحرقها بالعند عشان ما تبانش السرقة؟ ويقول لك روحى اشتكى والشكوى عند أبوكاتو وتعيين جلسة وحق مدنى يندفع عليه رسوم».

«والمكوجى يسرق الحاجة اللى تعجبه ويقول لك راخر روحى اشتكى».

«يعنى الحقوق الصغيرة تضيع كلها هدر على صاحبها، ما عندناش إحنا محاكم صغيرة للأمور المستعجلة اللى يفصل فيها فى الحال، وعدم وجود محكمة من النوع ده بتخلى الناس تخلص حقها بإيدها، لذلك تسمعى إن واحد قتل واحد عشان بصلة، وعشان مليم».

(٨)

والشاهد أن بيرم التونسى جمع بين الانطباعية والإبداعية فى حديثه عن طبيعة الديمقراطية فى المجتمع الفرنسى فقال فى زجل جميل:

العلم والرقص دول فى معهد السوربون.

أعجب عجيبة أشوفها لو ألف الكون.

معهد حكومى، وحقه يشبه الكركون.

لكن فرنسا لها دون الأمم أحوال.

«ليبران» فى الاحتفال بيصافح الشيال.

وبنت سوق الخضار ساكنة مع الماريشال.

والبوسطة صندوقها واقف داخل الدكاكين.

(٩)

تحدث الأستاذ أحمد الصاوى محمد عن تجربة مهمة فى حياته حين قدر له أن يتنبه إلى ضرورة الاختلاط بالفرنسيين والزائرين والاتصال بهم:

«وقد علمتنى الشهور القليلة التى قضيتها هنا أن أكون أكثر أنسا وأقل تحفظا وانطواء على ذات نفسى. وهو ما فى طبعى وأوثره إيثارى العزلة والمطالعة على الجماعة، والرقص».

«وقد حدث أن اعتزلت الشهر الماضى فى ضاحية متواضعة من ضواحى باريس كعزبة الزيتون، وكنت أتناول طعامى عند عانس تعيش مع أمها فى بيت أنيق وتنزل عندها طائفة من الناس، فكنت نزر (أى نادر) الكلام على المائدة لأن أحاديثهم كلها لم تكن تعجبنى، أحاديث تافهة لا توقد شرارة فى الذهن ولا فى الفؤاد. فلما تركت بيتها وعدت إلى باريس وصفتنى لأحد أصحابى الذى ورث مقعدى على مائدتها الموحشة بأننى «متوحش جدًّا».

«لقد تلقيت درسا فأردت الليلة أن أنفى بنفسى عن نفسى صفة الوحشية فأقبلت على هذه الإنكليزية التى لها وأختها من جمالها ما يوقد شرارتين فى العقل والقلب معا... وحدثتها مداعبا «كيف لا ترقصين؟».

«فضحكت وقالت: «فى هذا الجو الماطر؟».

فقلت: «هذا أدعى... فمن وسط عجيب لا يمكن تآلفه واجتماعه فى غير الشوارع العامة إلى رقص على قارعة الطريق على أوزان موسيقى بسيطة شبه قروية بلا تعارف سابق ولا وداد لاحق إلى رذاذ يخمش الوجوه بلطف، ويختبئ فى الشعر الغزير الأشقر!».

فابتسمت قائلة: «صدقت... ولكننى أوثر الحديث».

«وكانت الفتيات لا عداد لهن ينظرن إلى الشبان نظرات العطف والابتهال كل نظرة تنم عن جملة تضرع أو نداء «ألك فى رقصة معى؟».

ويصل الأستاذ الصاوى إلى أن يقول:

«والآن وقد أطفئت المصابيح الملونة، ورفعت الكراسى والمناضد المكدسة على الأرصفة، وسكتت أنغام الشارلستون الهمجية، وبطلت حركة الأقدام الراقصة التى لا يعروها تعب، ونزلت الأعلام الخافقة، وتلاشت شهب النار والنور التى أطلقت من «القنطرة الجديدة» فوق نهر السين عدت إلى بيتى وحيدا، واجما، حزينا».

(١٠)

أما عن أخلاق الفرنسيين والحرية فقد كتب الأستاذ أحمد الصاوى محمد وصفًا للاحتفال بيوم الباستيل فى باريس بطريقة جميلة فى فقرة موحية ضمنها كل ما كان يؤمن به من عظمة فرنسا وارتباط الحرية بهذا الشعب العظيم على نحو ما انطبعت الصورة فى ذهنه من احتفالات الباستيل:

«إن لكل بلد فى العالم روحا يميزه عن غيره من البلدان ويطبعه بطابعه الشخصى، ولعل روح باريس هى الحرية المطلقة بأوسع حدودها فى أكمل أشكالها. لذلك كان احتفالها بعيد حريتها طبيعيا لا أثر فيه للصنعة والتكلف.

«فهى حرة بفطرتها وبداهة أن تمجد فطرتها بالبساطة التى تعد من أصول الجمال».

«لما رأيت الاستعداد للعيد قائما على قدم وساق. وأماكن البيع المؤقتة للحلوى والزينة والثياب، واللعب بالكرات الخشبية والبلياردو اليابانى وإطلاق الأسهم، وركوب الأراجيح الدائرة على نغم الموسيقى».

«ولما رأيت الأكشاك المغطاة بالنسيج الأحمر ليجلس فيها رجال «الجازبند».

«ولما رأيت الأعلام المثلثة الألوان تكاد تحجب وجه السماء لكثرتها».

«ولما رأيت أسلاك الكهرباء تجرى كالثعابين متلألئة حول المبانى الحكومية السوداء الضخمة حتى تتعانق حول الحرفين الأولين من «الجمهورية الفرنسية».

«ولما رأيت تماثيل عظمائهم خالية بأكاليل الزهر من رجال الثورة إلى علماء الدولة».

«لما رأيت هذا كله مما يأبى الحصر، قلت فى نفسى إن هؤلاء الفرنسيين قد ولدوا جميعا، أحرارا وإلا فمن ذا الذى رأى منهم الثورة العظمى وشاهد هول يوم الباستيل الذى قضى على عهد الطبقات، وكسر شوكة القسوس والأمراء».

«من ذا الذى سمع منهم قرع الطبول وأزيز النار، وهى تمزق صدور رجال الملك؟ وتلك الصيحات الأبدية الداوية «إلى الباستيل... اهدموا الباستيل».

«لكنهم على ذلك يفهمون أن أسلافهم قد اشتروا حريتهم بالدماء والمهج ليموتوا فداء الوطن، فهم باحتفائهم بيوم الحرية يمجدون أولئك الأسلاف».

(١١)

وقد عبر الأستاذ الصاوى باقتدار عن إعجابه الشديد بفرنسا وإيمانها بالحرية فى قوله:

«حيا الله باريس، إنك أينما قلبت بصرك رأيت تاريخا حافلا ومجدا موفورا وشهدت أن لهذه الأمة من ماضيها ما يفوق حاضرها ولو لم تفخر بذلك الماضى، ولو أنها تجردت من عز الحاضر كله، لحق أن تتيه بذلك الماضى القريب السامى. وليس فوز أحرار الفرنسيين فى هدمهم الباستيل بأيديهم وعصيهم وهم يلقون النار بصدورهم بالفوز المقصور عليهم أو على خلفهم وحسب، بل إنه لفوز الإنسانية بأسرها، فكل من يضع حجرا فى حرية أمة يزيد صرح السلام العالمى صلابة وعلوا.

«ودعاة الحرية وقادة الإستقلال فى كل أمة هم أنبياء هذا العصر. وإذا كان لكل دين جاحدون فإن الكفرة بهؤلاء الرسل هم أساطين الاستعمار وأذناب الأوتوقراطية والطامعون فى بناء هياكلهم على جماجم الضعفاء».

(١٢)

ونأتى إلى ما يقال عن شعور المواطن الفرنسى بالعظمة وهو قول حقيقى، كما أن الشعور حقيقى.

منذ بداية القرن العشرين تحدث أحمد زكى باشا عن هذا المعنى فقال:

«أليس أن كل واحد منهم يعتقد أن له حصة فى ملك فرنسا».

«أليس أنه فوق ذلك قد تصور الأمانى والأوهام أنه ربما ساعده الزمان على الارتقاء إلى هذا الملك فصار رئيس الجمهورية فى يوم من الأيام؟

«كيف لا والشاهد أمام عينيه قريب؟

فها هو المرحوم فلكس فور رئيس الجمهورية السابق قد ارتقى هذه المنصة العالية فى هذا الدست الفخيم مع أنه كان فى أول أمره عاملًا عند الجلادين والدباغين».

(١٣)

وهاهو مثقف مصرى من العصر السابق هو الأستاذ أحمد فهمى العمروسى يصور حب الفرنسيين للحرية والكرامة على نحو جميل، حيث يقول:

«يوم دخولى بمدرسة سان كلو احتفل طلبة السنة الأخيرة بالمستجدين وكان يقضى برنامج الحفلة أن يغنى كل طالب من السنة الأولى أنشودة فلما جاء دورى اعتذرت بأنى لا أعرف الغناء بالفرنسية، فاقترحا على أن أغنى بالعربية على أن أترجم لهم معنى ما أقول. فارتقيت المنصة وقلت هذين البيتين لعنترة بن شداد:

حكم سيوفك فى رقاب العزل وإذا نـزلت بـدار ذل فـارحل
وإذا بليـت بظـالم كـن ظالما وإذا لقيت ذوى الجهـالة فاجهل

«ثم ترجمتهما بالفرنسية، وإذا هم يقابلون المعانى بتصفيق حاد حتى نهض أحد الأساتذة وقال: «إن العرب كانوا يعشقون الحرية مثلنا وكانوا متشبعين بمبادئ القرآن الذى ينص على وجوب مقابلة المثل بالمثل: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» العين بالعين والسن بالسن».

(١٤)

وقد وصف بيرم التونسى اعتزاز الفرنسيين والفرنسيات بأنفسهم وعملهم، وما بلغه هذا الاعتزاز فقال:

شفت العيون والشفايف فى باريس بتقول:

إحنا ملوك البرايا حكمنا مقبول.

البدع والفن كله عننا منقول.

سادات بنا فى السيادة تنضرب أمثال.

أحرار محرم علينا السجن والأغلال.

والفقر والذل ما لهم فى بلادنا مجال.

ويوم سباق «النجايب» كلنا سابقين.

(١٥)

وربما كان من حق القارئ الآن أن نعود به إلى بواكير الكتابات الملخصة لرأى المصريين فى طبيعة أخلاق الفرنسيين:

كان رفاعة الطهطاوى يميل إلى القول بأن الفرنسيين أقرب إلى العرب من جنسيات أخرى اشتهر قربها من العرب، ونحن نعرف بالطبع ما لا يذكره رفاعة من أن هذا القرب من تلك الشعوب جاء بسبب دخولها فى الإسلام:

«ظهر لى بعد التأمل فى آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية، أنهم أقرب شبها بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الأجناس، وأقوى مظنة من العرب بأمور كالعرض، والحرية، والافتخار، ويسمون العرض شرفا، ويقسمون به عند المهمات، وإذا عاهدوا عاهدوا عليه، ووفوا بعهودهم، ولاشك أن العرض عند العرب العرباء أهم صفات الإنسان، كما تدل على ذلك أشعارهم وتبرهن عليه آثارهم».

(١٦)

وقد تحدث رفاعة الطهطاوى عن أخلاق الباريسيين على وجه العموم فقال:

«اعلم أن الباريزيين (هكذا كان رفاعة لايكتب الباريسيين إلا بالزاى على نحو ما كان يفعل أيضًا فى باريز) يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل، ودقة الفهم، وغوص ذهنهم فى العويصات، وليسوا مثل النصارى القبطة فى أنهم يميلون بالطبيعة إلى الجهل والغفلة، وليسوا أسراء التقليد أصلا، بل يحبون دائما معرفة أصل الشيء، والاستدلال عليه، حتى إن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة، ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة».

«كل إنسان على قدر حاله، فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الأنعام كعوام أكثر البلاد المتبربرة، فيحتاج الصنائعى بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لإتقان صنعته، وكل صاحب فن من الفنون يجب أن يبتدع فى فنه شيئا لم يسبق به أو يكمل ما ابتدعه غيره، ومما يعينهم على ذلك، زيادة عن الكسب، حب الرياء والسمعة، ودوام الذكر، فهم يقتدون بقول الشاعر:

لعمرى رأيت المرء بعد زواله حديثا بما قد يأتى ويصنع
فحين الفتى لابد يذكر بعده فذكراه بالحسنى أجل وأرفع

«وقول ابن دريد:

وإنـما المـرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى»

(١٧)

وثمة خلق ثالث تحدث عنه رفاعة الطهطاوى بذكاء وإعجاب وهو ترحيب الفرنسيين بدفع الضرائب والرسوم الحكومية وما يدل عليه هذا الخلق من إيمانهم بوظيفتها الاجتماعية فيقول:

«هذا لا يمنع من أنهم يدفعون الميرى (أى الرسوم الأميرية المقررة من ضرائب ونحوه) عن طيب خاطر، لما أنهم يرون أن الخراج (هكذا يستخدم رفاعة اللفظ الإسلامى) عمود الملك إذا دفع كل إنسان منهم ما هو عليه قادر، فمال الميرى هو قوام صورة الممالك، وإحسان مصرفه فى استحقاقه خير مما هنالك، قال الشاعر:

والمـال أس لقيام الصورة وخير منه صالح المشورة»

(١٨)

ونمضى خطوة أخرى فى عمق الزمان مع ماهو متاح أمامنا من الروايات إلى بداية عصرنا الحديث فنجد أن الجبرتى كان (بالطبع) أول مَنْ تناول علاقة الفرنسيين بالمرأة على نحو مشخص لهذه العلاقة مما رآه من مظاهرها حين قدم هؤلاء فى الحملة الفرنسية:

«يقول الجبرتى: «فلما حضر الفرنسيس، ومع البعض منهم نساؤهم، كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة، ويركبن الخيول والحمير مع الضحك والقهقهة، ومداعبة المكارية معهم، فمالت إليهم (لاحظ

أنه يستخدم ضمير المذكر إشارة إلى الفرنسيين لا الفرنسيات، وهو ما تؤكده الجملة التالية مباشرة) نفوس النساء (المصريات) فتداخلن مع الفرنسيس لخضوعهم للنساء (هكذا يعبر الجبرتى بفعل الخضوع عن أفعال أخرى نستخدمها من قبيل الاحترام أو التقدير أو إعطاء المكانة)، وبذل الأموال لهن، وعدم مخالفة هواهن ولو شتمنهم أو ضربنهم، فطرحن (الضمير يعود على النساء المصريات) الحشمة والوقار».

«وخطب الكثير من الفرنسيس بنات الأعيان وتزوجهن (مع أننا نعرف أن هذا حدث فى حالات نادرة، إلا أن الجبرتى يشير إلى الحادثة على أنها ظاهرة)، فصار معهم النساء المسلمات متزييات بزيهم، ومشين معهم فى الطرقات للنظر فى أمور الرعية، وأمامهن الخدم بأيديهم العصى مثلما يمر الحاكم، يأمرن وينهين، كذلك صاحبن الرجال فى المراكب والرقص والغناء، عليهن الملابس الفاخرة والحلى، وصحبتهن آلات الطرب».

(١٩)

أما رفاعة الطهطاوى فقد أجمل رأيه فيما سماه نساء الفرنساوية فقال:

«ففى نساء الفرنساوية ذوات العرض، ومنهن من هى بضد ذلك، وهو الأغلب لاستيلاء فن العشق فى فرنسا على قلوب غالب الناس ذكورا وإناثا، وعشقهم مُعلل لأنهم لا يصدقون بأنه يكون لغير ذلك إلا أنه قد يقع بين الشاب والشابة فيعقبه الزواج».

(٢٠)

ومن العجيب (وإن كان هذا متوقعا) أن يحيى حقى لم يتعاطف مع سلوك الشباب الفرنسى فى ثورة ١٩٦٨، بل ذهب إلى تبنى الرؤية الناقدة لهم، والواصفة لسلوكهم بتهم الانحلال والضياع، لكنه فى الوقت ذاته لم ينكر أنه رأى فى جموع هؤلاء الشباب ذكاء لم يره من قبل، ووضاءة إلهية، وعيونا بريئة حتى إنه أصبح فى حيرة من أمره تجاه هؤلاء:

«وقليلا قليلا.. تحس بشعور من القلق يتنابك، ثم يعلو شيئا فشيئا.. بالعدوى.. من الزكام إلى الحمى، هذه الحركة كلها رقص على بركان، ومن أعجب العجب أننى رأيت وجوه هؤلاء

الفتيان وقد لصقت بهم ـ عن جدارة ـ تهمة الانحلال والضيعان والاستهتار، تنطق لى بقمم من الذكاء لم أر مثلها، الجباه وضاءة بنور سماوى، والعيون تسيل منها الوداعة والبراءة، حتى أصبحت لا أدرى.. هل يمر بى رهط من المنحرفين، أم ركب من القديسين؟!».

(٢١)

ونأتى إلى السؤال المتوقع : هل باريس هى فرنسا؟ وهل فرنسا هى باريس؟

يعقد يحيى حقى فصلًا خاصًا للمقارنة بين باريس ومونبلييه من خلال الحديث عن ابتعاث الزعيم الوطنى مصطفى كامل إلى الثانية بدلًا من الأولى، ملخصًا فكرة المصريين فى ذلك العصر عن هاتين المدينتين الفرنسيتين وحرصهم على النجاة بأبنائهم من باريس إلى مونبلييه:

«نراه (الضمير يعود على مصطفى كامل) حين أراد السفر قد عدل ـ أو عدل به أولياء أمره قرابة أو مصلحة، مثل الخديو عباس الثانى– عن الاتجاه إلى باريس، مع أنها قلب فرنسا، والعاصمة التى تزهو بمناخها الثقافى والفنى الفريد، وبمعاهدها العلمية، يتوجها السربون، ذائع الصيت، رب الوقار، لهجتها هى الأرقى بين اللهجات العديدة التى تتوزع أقاليمها، هى المقصد الأول لطلبة العلم والفنون القادمين إلى فرنسا من الشرق والغرب، ورضى مصطفى كامل ـ جبرا أو اختيارا ـ أن يشذّ عنه ويقيد اسمه بجامعة مونبلييه، وهى مدينة صغيرة فى جنوب فرنسا».

«أصبح لاسم هذه المدينة وجامعتها ـ بفضل مرور مصطفى كامل بها ـ أجمل وقع فى آذاننا، نحن أبناء الجيل الطالع بعد جيله، كان تصورنا للذهاب إليها ـ لو سمحت به الأيام ـ أنه نوع فريد من الحج، أو المشى على هدى خطى الحبيب الراحل».

(٢٢)

وينبهنا يحيى حقى إلى أن سلوك مصطفى كامل لم يكن نسيج وحده فى ذلك العصر:

«لم يكن هو وحده الذى فعل هذا، بل فعله كثير من الشبان المسافرين لطلب العلم فى فرنسا، بإرادة من أهلهم، كان مآلهم إلى جامعة فى الجنوب، بعيدة عن باريس، مثل جامعة مونبلييه أو

إكس، لأن أهلهم يؤمنون بأن باريس ـ كما هى مدينة العلم والعرفان ـ هى أيضا ـ مع الأسف ـ مدينة اللهو والفجور والفساد، مدينة مخلوعة العذار، هى داء خطر ومباءة، لابد من تحاشيها، الهرب الهرب منها».

(٢٣)

وأخيرا فإن الجوهر قد لا يتفق مع المظهر فى باريس.

وربما امتازت باريس بأن المفارقة فيها أبلغ وأطرف.

وهذه قصة طريفة تحدث الدكتور محمود عزمى فيها عن تجربة مثيرة فى التعرف على العلماء من سمتهم، فإذا هذا التعرف ينقلب على أصحابه:

«..وزرنا الرجل فى منزله بالحى اللاتينى ثم تفضل فضرب لنا موعدا لمقابلته بدار المجمع العلمى الفرنسى – مجمع الأكاديميات كلها – ليقدمنا هناك إلى «أمراء العلم» وذهبنا ودخلنا لأول مرة فى حياتنا ذلك الهيكل المقدس تقديسا عاليا ووقفنا فى بهو طابقه الأول ننتظر وصول مسيو «ماسبرو» أو ظهوره داخلا أو خارجا خلال باب من الأبواب العديدة المطلة على البهو».

«وتمثلت نفسى، وتمثلت إخوانى الثلاثة معى كأولئك القرويين الذين يحضرون إلى دواوين الحكومة فى القاهرة وينظرون إلى مبانيها وتنسيقها فيجدون فيها كل شىء عجبا، ويقفون مبهوتين. وهكذا كنا نحن الذين تبعثهم الجامعة المصرية للتخصص فى بعض نواحى العلم العالى بباريس».

«وقفنا ننتظر علامتنا فكانت الأبواب المطلة على البهو تفتح فيدخل منها شيخ وقور نال منه الشيب فزاده وقارا، فى بذلة خضراء تتدلى على صدره سلسلة من المعدن الأبيض، فيقول قائلنا: «انظروا كيف يسير العلم فى تؤدة. شاهدوا كيف يحنى العلم الظهور. لاحظوا فعل كثرة الاطلاع فى العيون».

«ثم يدخل شيخ وقور آخر ويسعل سعلة فيها من (البلغم) فيقول قائلنا: «إنها كحة العلم فأنصتوا لها، وإنه بلغم العلم فاحترموه».

«ثم يقف فى البهو رجل فى زى العاديين من الرجال يسير بعض الشىء يمنة ويسرة فلا تحسبه شيئا مذكورا ويتولاه أحدنا «بالتنكيت» فيلاحظ أن حذاءه هو من نوع الأحذية «العجيبة» التى يعلن عنها فى أحد دكاكين الحى اللاتينى بأن ثمنها تسعة فرنكات وخمسة وتسعون سنتيما».

«ثم إذا بباب كبير يفتح، وإذا بشيوخ ينسابون إلى البهو، وإذا بعلامتنا «ماسبرو» بينهم، فنتقدم إليه، وإذا بنا نرى عجبا».

«نرى ذينك الشيخين الوقورين اللذين كنا نتغزل فيما فعله العلم بهما قد أمسك كل منهما بقبضة باب يفتحه ويغلقه لتسهيل المرور منه على أعضاء المجمع وزائريه».

«وإذا بذلك الرجل العادى ذى الحذاء «العجيب» الذى يقل ثمنه عن العشرة فرنكات إذا به مسيو «ألفرد كروازى» لا أقل ولا أكثر. مسيو «ألفرد كروازى» عميد كلية الآداب بجامعة باريس».

«فعلمنا إذًا أن العلم عند أولئك القوم لا هو بالسعلة، ولا هو بالتؤدة، وإنما هو بالتواضع الصحيح».

■ ■ ■

الباب الخامس

الشانزيلزيه والمقاهى والأحياء

(١)

سؤالان يشعر بهما زوار باريس بعد تأمل:

الأول: ما الذى يميز الشانزيليزيه عن بقية شوارع الدنيا حتى يحتل من بينها هذه المكانة المرموقة؟

الثانى: هل المقهى من أخص خصائص باريس؟

أبدأ بالإجابة عن السؤال الثانى باختصار ثم أعود إليه فى النصف الثانى من هذا الباب.

أقول: نعم، وربما لا يعرف القاهريون فضل المقهى الباريسى على مقاهيهم إلا إذا كانوا من الذين يمرون بالإسكندرية حيث تحتل المقاهى السكندرية مكانة أفضل بكثير من المقاهى فى المدن العربية الأخرى.

المقهى فى باريس هو نقطة التقاء، حتى إن الذين يريدون أن يلتقوا (حتى من دون الجلوس) يتواعدون باللقاء فيه أو أمامه.

والمقهى فى باريس هو أيضا جزء من صالون البيت لكنه صالون اختيارى تختاره أينما شئت، ومتى شئت.

والمقاهى الباريسية حريصة على الديكورات الجميلة التى تليق بالصالونات، وحريصة أيضا على أن تظل مفتوحة، سواء فى ذلك أن تكون مفتوحة الأبواب، وأن تكون زجاجية الحوائط التى تفصلها عن الشارع.

باختصار شديد فإن المقهى فى باريس هو الموعد، موعد العمل، أو موعد الحب، أو موعد اللقاء.

المقهى فى باريس هو الجغرافيا حيث تعرف الأماكن والمحلات بالإشارة إلى أقرب مقهى منها.

والمقهى فى باريس هو التاريخ، حيث احتفظت ذاكرة الفرنسيين بأسماء المشاهير الذين آثروا هذا المقهى أو ذاك بالجلوس عليه واللقاء مع مريديهم فيه.

«ومع هذا فإن بعض المقاهى الباريسية بدأت تعانى من الموت والانقراض، وعلى سبيل المثال فى الحى اللاتينى كان هناك مقهى اسمه مقهى «كلونى»، كان بمثابة المكان المفضل لكثيرين من الأدباء والفنانين العرب، ومنهم جورج البهجورى، لكنه تحول إلى مطعم للبيتزا بعدما كان أحد مراكز تجمع اليساريين العرب بل المعارضين على وجه العموم، ويروى أن سهيل إدريس كتب على هذا المقهى روايته «الحى اللاتينى».

(٢)

وأبدأ فى إجابة السؤال الأول:

ما الذى يميز الشانزليزيه عن بقية شوارع الدنيا حتى يحتل من بينها هذه المكانة المرموقة؟

الإجابة تتمثل فى إجابات متعددة، من بينها: اتساعه،وجماله، وبدايته، ونهايته، ومحلاته، ومقاهيه، ومحطاته، وسهولة الوصول إليه، والعودة منه، وسهره، وحريته.

لكنك تستطيع أن تلمح فى الشانزليزيه كل المتناقضات، ففيه هؤلاء الذين يسيرون أسرع من خطوات الحصان، وفيه أيضا مَنْ يسيرون سير السلحفاة، هؤلاء وهؤلاء يحققون ويجدون متعتهم البالغة فى هذا السير.

وتستطيع أن تلمح أيضًا أزياء تقليدية وأزياء لم ترها من قبل، وتستطيع أن ترى ذلك الالتزام الدينى فى الزى، كما تستطيع أن ترى التحرر المطلق من كل زى، ومن كل التزام.

وفى أحيان كثيرة تعجب من هذا التناقض الصارخ فى الزى الذى ترتديه سيدة واحدة، فبينما

هو يصل إلى أقصى درجات الاحتشام فى النصف العلوى، إذا هو قصير جدا وكأنه حسب تقاليدك يصل إلى أقصى درجات التحرر فى النصف السفلى، بل ربما إنه يغيب تماما عما تحت الركبة وعما فوقها بكثير، ومن الطريف أنك ترى فى بعض الأحيان صورا رسمية لسيدات سياسيات وهن فى مثل هذا الزى، لكنك إذا جلست فى الشانزليزيه لتتأمل فيمن يمرون أمامك فسوف تجد ما هو أكثر غرابة من هذا بكثير.

وأنت ترى فى الشانزليزيه معرضا للبيجو فيفاجئك المعرض بأنه يعرض طرز الدراجات البخارية التى تنتجها شركة البيجو، وربما تكون هذه المرة الأولى التى تعرف فيها أن بيجو تنتج دراجات بخارية، فلم يحدث لك أن رأيت موتوسيكلا بيجو!! لكنك سرعان ما تجد أن هناك ما يقرب من مائة طراز من طرازات الموتوسيكلات البيجو، وأن التفاوت فى إمكاناتها جميعا لا يقف عند حد، وتتعجب من هذا المعرض العظيم الذى تراه أكثر جاذبية من معارض السيارات التى تأكل السيارات مساحات العرض فيها، حتى ليكفيك أن تشاهدها وأنت فى الشارع، أما معرض الموتوسكيلات فحياة أخرى وثراء آخر.

(٣)

وأنت ترى فى الشانزليزيه أيضا معارض شركات السيارات اليابانية وقد أخذت الطابع الباريسى فى العرض، وحافظت على كل ما فى المبنى نفسه من تقاليد باريس، حتى إنك لتحس وأنت ترى معرض شركة «تويوتا» أنه قائم هنا منذ ولدت باريس، وتجد مبنى كاملا لشركة يابانية أخرى، وتجد مبنى ثالثا لشركة كورية.

وتدرك على الفور أن باريس متسامحة فى محلات الشانزليزيه، لكنه السماح مدفوع الأجر، وتظن باريس تتسامح فى كل شىء، لكنها لا تسامح إلا فيما هو محل السماح، فما الفارق بين أن تعرض تويوتا سياراتها بنفسها أو من خلال تويوتا الفرنسية، وبين أن يعرضها صاحب شركة الفرسان أو صاحب شركة الخيول؟

إن الأولى أن تفسح باريس صدرها الذى فى الشانزليزيه لأسماء هذه الماركات العالمية حتى تكون قبلة حقيقية ومنارة حقيقية.

وأنت كقاهرى تستمتع بالمرور على محل العطور «سيفورا» فتروعك مساحته الضخمة، ونظامه البسيط المبهر، ويروعك هذا التسامح المقصود الذى يبذله المحل عن طيب خاطر لكل المارين به والمارات الذين يذهبون إلى أى قسم يريدون ويتعطرون مجانا، بل وبإمكان الآنسات والسيدات أن يضعن مساحيق التجميل بدرجاتها وأنواعها كما يَشَأْنَ، وكل هذا على سبيل العينة، ولم يشك «سيفورا» أبدا ولم يصبه الفلس، وهو نموذج رائع لهذا العطاء الذكى الذى لا تقيده بيروقراطيات، ولا تستطيع أن تقيده.

(٤)

تحدث الدكتور محجوب ثابت عن الشانزليزيه فقال:

«ولا يفوتنى أن أذكر لك ذهابنا إلى غاب بولونيا إذ تتوقنا (يقصد: اشتقنا) أن نرى هذا الغاب «بوادى بولونى» والشانزليزيه التى لا أقوى على ترجمتها ولا يجوز أن تترجم وهيهات لترجمة أن تعطى رنينها أبدا، أو «الرياض الفردوسية» اذا أردنا الترجمة الحرفية، وهى تعطى الصورة النفيسة التى أرادها الفرنسيون، لا أجد لفظًا أصف به ذلك الطريق السحرى الموصل من ميدان الكونكورد إلى غاب بولونيا وترى قوس النصر الذى ذكرنا بهذه الصحيفة النابليونية التى سجلت ميادين القتال»

(٥)

أما وصف رفاعة الطهطاوى فبديع:

«فمنها حديقة تسمى «الشمزليزه» (هكذا كان رفاعة يكتب الشانزليزيه متأثرا بالحروف اللاتينية للكلمة)، معناها بالعربية: رياض الجنة، وهى من أرق المتنزهات وأنضرها، وهى بستان عظيم يبلغ أربعين أربانا، والأربان هو قياس يقرب من الفدان، ومع أن طول طريقها نحو ألف قامة فإنها موضوعة بحيث إنك إذا مددت نظرك رأيت طرفها الثانى قدام عينيك».

«وفى هذه الروضة العظيمة دائما شىء من الملاهى لا يمكن حصره، وسائر أشجار هذا البستان متصافة متوازية بعضها مع بعض، رتبت بحيث إنه يوجد مدخل من كل الجهات، فهو

على سمت الخطوط المستقيمة من سائر الجهات، وفى وسط كل جملة من الأشجار يوجد محل مربع.

«وهذه الحديقة يتصل أحد جوانبها بنهر السين، وبينها وبينه رصيف، وبجانبها الآخر بيوت بأطراف الخلاء، وفيها كثير من القهاوى و«الرسطراطورات» (هكذا كان رفاعة يكتب كلمة المطاعم، وهى كتابة دقيقة من مقابلة حروف الهجاء الفرنسى)، يعنى بيوت الأكل، وفيها سائر أنواع الطعام والشراب.

«وهى مجمع الأحباب والأكابر، وبها كثير من المرامح للخيل، ويدخل فيها الأكابر بالعربات المزينة، وفيها عدة آلاف من الكراسى بالأجرة يجلس عليها فى زمن الربيع نهارا، وفى الصيف ليلا، وأعظم اجتماع الناس فيها يوم الأحد، فإنه يوم البطالة (أى يوم الإجازة أو يوم الراحة) عند الفرنساوية، وبالجملة، فهذه الحديقة محل للمواسم وللأفراح العامة والزينات، وبها تتماشى سائر النساء الجميلات».

(٦)

وبعد عقود من الزمان وصف أحمد زكى باشا الشانزليزيه فى ١٩٠٠ فقال:

«وسرت بجلال ووقار، بين عبير الأزهار، وتمايل الأشجار، وتغريد الأطيار، حتى خلت نفسى قد انتقلت إلى عالم كله أسحار فى اسحار، أو إلى عالم الجنون بل ملكوت الجنان.

«كيف لا، وقد كنت أسير فى طريق الشانزليزيه (أى جنات النعيم)، والأشجار متناسقة متتابعة على ستة صفوف بين صنوان وغير صنوان».

(٧)

أما فتوح نشاطى فإنه يعبر عن إحساسه بالشانزليزيه بطريقة شاعرية تنتهى باقتباس بيتين لخليل مطران لم يقلهما الخليل فى ذلك الشارع، لكنهما يبدوان مناسبين له تمامًا بفضل ذوق فتوح نشاطى:

«وأشاهد فى إعجاب التماثيل المتناثرة فى الحدائق والميادين، وأقف فى زهو أمام مسلتنا المصرية التى ترتفع فى وسط ميدان الكونكورد وقد ترامى أمامها شارع الشانزليزيه الصاعد إلى قوس النصر، تطل من خلفه شمس غاربة ترسل فى السماء ألوانا مختلفة تخلب اللب والبصر، فتذكرنى بأبيات لخليل مطران يقول فيها:

والشمس فى أفق يسيل نضارة — مثل العقيق على ذرى سوداء

مـرت خـــلال غمامتين تحدرا — وتقطـــرا كالدمـــعة الحمراء»

(٨)

من الطريف أن أسماء الشوارع المحيطة بميدان النجمة أو الايتوال (أو إيتوال شارل ديجول) هى فى معظمها أسماء لقادة من قادة نابليون، على حين أن اسم نابليون نفسه ليس موجودا على شارع من هذه الشوارع.

أما الشوارع البحرية فهى بترتيب القادم من الكونكورد (سواء أكان قادما على قدميه أم بالسيارة): شارع فريدلاند، يليه شارع أوش، وثالثها هو شارع فاجرام، وهو من قادة نابليون، ثم مكماهون، ثم كارنوت.

أما الشوارع القبلية فهى بالترتيب للقادم من الكونكورد على قدميه (ولا تقل بالسيارة لأن الترتيب يكون بالطبع عكس هذا): مارسو، ثم إيينا وفيه سفارتنا، ثم كليبر القادم من التروكاديرو، ثم فيكتور هوجو، ثم فوش.

وإنى أذكر بسعادة أنى قطعت كل واحد من هذه الشوارع الخمسة على قدمى مرات عديدة حين كنت آتى إلى الشانزلزيه من التروكاديرو وما بعده من الناحية الأخرى من النهر.

(٩)

وليس من النادر أن تجد الآن لافتات عربية كثيرة فى شوارع كثيرة من باريس، ففى الحى الذى أقمت فيه فى ٢٠٠٦، باعة عرب كثيرون يعرضون أسعار مبيعاتهم باللغة العربية، بل إنى وجدت مكتبًا للاتصالات يشبه المكاتب اليمنية، وقد رفع فى واجهته أسعار دقيقة

الاتصالات إلى بلاد عربية كتب أسماءها بحروف عربية، مثل: مصر والجزائر والمغرب وتونس.

والمطاعم العربية الفاخرة أصبحت تزداد باطراد، وإنى أذكر لك على سبيل المثال أنى أعجبت بلافتة تشير إلى مطعم فخر الدين، وهو مطعم عربى يطل على شارع مارسو، زرته فى طريقى إلى الكافتيريا الشهيرة «كورونا» فى مساء يوم من أيامى فى باريس.

(١٠)

ربما أفاجئك بأن أذكر أن ميدان الكونكورد هو الميدان الذى أعدم فيه الملك لويس السادس عشر فى أيام الثورة الفرنسية.

يذكر أحمد شوقى فى أشعاره ميدان الكونكورد باللفظ العربى المقابل: (الوفاق).. مشيرًا إلى ماذكرناه لتونامن أنه الميدان الذى أعدم فيه الملك لويس السادس عشر فى أيام الثورة الفرنسية، ويحاول أن يتفلسف فى الحديث عن معنى اسمه فى الحاضر، وما ارتبط بالميدان فى الماضى من مظاهر الشقاق فى الثورة فيقول:

ميدان الوفاق وكنت تدعي   بميدان العداوة والشقاق
أتدرى أى ذنب أنت جان   وأى دم ذهبت به مراق

ويكنى أحمد شوقى عن إعدام الملك بقوله: «هوى السرير ومن عليه»، وهو يخاطب الميدان بقوله:

هوى فيك السرير ومَنْ عليه   ومات الثائرون وأنت باق
أصابوا واستراح (لويس) منهم   لذا سميت ميدان الوفاق

(١١)

وننتقل من الشارع الأشهر والميدانين اللذين يصل الشارع بينهما إلى الحديث عن بعض الأحياء.

نبدأ بحى مونامارتر.

فى مذكراته التى لم تنشر إلا بعد وفاته بأربعين عاما يصف الدكتور محمد حسين هيكل حىّ مونمارتر فى تلك الحقبة من الزمان التى كانت لاتزال قريبة من عهد مجد هذا الحى، مشيرًا إلى أنه ذهب إلى أحد ملاهيه بناء على نصائح صديقه:

«وبعد تخبط طويل فى البحث عنها وصلتها الساعة العاشرة والنصف مساء، (فإذا بى) مبدر (يقصد: مبكر) أكثر من اللزوم».

«فى مثل هذه الساعة يوجد فى تلك الجهة من باريس كما يوجد فى غيرها عائلات تريد أن تفرج الكرب عن نفسها، فإذا ما انتصف الليل وخلا الجو لأصحاب السهر ابتدأ يحل محل هؤلاء (شبان) وبنات مونمارتر».

«ويدخل السرور إلى المكان بشكل فظيع، سرور غير مرتب، ويملأ وجه كل إنسان، فتدور البنات بين الترابيزات ويلبسن برنيطة هذا ويرتدين رداء ذاك ويصحن ويدخن ويجذبهن الشبان نحوهم، والموسيقى تدق بنغمات شديدة، ويتتابع المغنون والملحنون أشكالا وألوانا».

«ومن لحظة لأخرى ترن فى المكان ضحكة من بعض النواحى التى أخذها جماعة معا من الشبان، وكأن فى ذلك الجو المملوء بالدخان حتى ليختنق مخدرات تذهل كل مَنْ فيه عن همومهم ولا تدع مكانا إلا للضحك والسرور، وسط هذه الضجة الفرحة بقيت أنا وحدى ساكنا حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل».

(١٢)

وأنتقل بك مباشرة إلى توفيق الحكيم وهو يفرق بين حيين من أحياء باريس لهما اسمان قد يتشابهان علينا نحن المصريين: (مونبارناس ومونمارتر).

لكن الحكيم يرى أحدهما حيا للتجارة بالفن.

ويرى الآخر حيًّا للحياة بالفن.

ونحن نقرأ تفاصيل رؤية الحكيم هذه فى أحد حواراته المصنوعة بإتقان:

«صمت جان لحظة. ثم رفع رأسه وهزها ثم قال:

«كلا. كلا يا مسيو «الحكيم»، كلا.. حياتنا نحن فى هذا الركن الحقير، قهوة «سيرانو» وأمثالها وحانات «القط الأسود» و«الأرنب الخفيف» و«أرستيد برويان» و«الجنة» و«الجحيم»... إلخ... تلك مونمارتر الحقيقية. أما «الفأر الميت» وأشباهه فمصايد لاقتناص المال من جيوب الثراة.

«تفكرت قليلا فى كلامه فوجدته الصواب، فصحت:

«برافو يا جان! مرحى وألف مرة مرحى! هذا كلام عميق ما تقول الآن، هذا حق.

«أتعلم لماذا تركت أنا مونبارناس وجئت أعيش فى مونمارتر؟ أحسست بما تقول أنت الآن: إن روح التجارة وقنص المال تكاد تعم مونبارناس الذى ينافس حينا هذا حتى ليكاد يقتله، شعرت أن مونبارناس ليس إلا حى السائحين من جميع الأجناس. وحيث يظهر السائحون يظهر البذخ والكذب والادعاء. نعوت ثلاثة يهرب منها الفن هربا».

«وأحسست من ساعتى أن مونمارتر فى أنحائها السافلة الفقيرة ما تزال مرتع الفن الخصيب والفكر الحر. نعم لكم تنتعش نفسى إذ أجوس خلال هذه الجهة: شارع «روششوار»... شارع «بلانش»... ميدان «ترتر». تلك المناطق المتواضعة التى خلدها موريس أوتريللو فى صوره ولوحاته».

(١٣)

ويمضى توفيق الحكيم بعد فترات يعبر عن سعادته القصوى بحياته فى حى مونمارتر فيقول:

«اسكت يا جان! لا تذكرنى بالغد، إنى الآن أعيش. حسبى هذا، أعيش فى مونمارتر، فردوس الفن... الذى سأفقده يوما، سوف أذكره مع الحسرات وأذكر حياتى الشاردة بين قهوة سيرانو، وحانة «الأرنب الخفيف»، وسوف تتمثل لى كل لحظة تلك الحانة المظلمة بنورها الضئيل وروادها الجالسين إلى براميل انقلبت موائد ينظرون إلى رسوم على الحيطان وتماثيل كلها ذوق فى التصور ولذع فى الفكاهة وغرابة فى الأداء، وينصتون إلى أغانى القرون القديمة، وقد بعثت فى ثوب جديد من مغنين وشعراء حديثين موهوبين، ويشربون «البورتو» ممزوجا

بالكرز ويضحكون من نكات الساقين الظرفاء مثلك ياجان. تلك النكات الرشيقة المبطنة بحسن الذوق وعلو الكعب فى التخيل والشعر... حانة ساقوها وخدامها شعراء ومغنون أليس منهم نبغ «كاركو» و«دورجليس» كما نبغت «إيفيت جيلبير» من قبل؟

فقال خادم القهوة (جان) سريعا فى إعجاب يلمع فى عينيه:

«أوتريللو؟ لقد آتى هنا أيضا وجلس فى هذا الركن وسمعت حديثه!

«فى هذه القهوة! وأى غرابة؟... إنه لا يستطيع رغم شهرته الآن أن يسلو حياة التشرد فى مونمارتر، ولا أن يهجر هذا الحى الذى نشأ فيه، ما أجمل هذا الإخلاص! إنه ولا ريب المحب الأمين الذى لم تبرد عاطفته نحو مونمارتر! لدى بعض صور منقولة عن لوحاته، لكن لست أنظر فيها الآن كثيرا، إنى أدخرها للغد يوم لا أجد عزاء غير الصور، أما الآن فإن مونمارتر تحتوينى بذاتها وحقيقتها وتهمس فى نفسى بكل شعرها وبكل موسيقاها الداخلية التى لن يخفت لها صدى ما دمت أعيش».

«وسكت قليلا إذ بدا علىّ شىء من التأثير، فسألنى جان:

«أتنوى أن تعيش هنا طويلا؟».

(١٤)

والحق أن أبدع وصف لحى الفنانين حى مونمارتر هو وصف توفيق الحكيم له، وقد انطلق الحكيم إلى هذا الوصف من خلال تشبيه مونمارتر بشهرزاد، التى أحبها الحكيم وكتب عنها مسرحية جميلة، وقد رأى الحكيم فى مونمارتر الحى صورة من شهرزاد الأنثى الفاتنة الحكيمة، وهو يخاطب «جان» الذى هو محاوره الذى صوره بدقته حوارًا طويلا يكاد يكون مونولوجا من طرف واحد يتغزل فيه الحكيم ماشاء الله أن يتغزل فى مونمارتر وصفاتها ومزاياها وسجاياها فيقول ضمن ما يقول:

«إن مونمارتر هى شهرزاد، وإنى - لو عرفت الحقيقة - ماقطنت هذا الحى عبثا، ولسوف تقرأ «شهر زادى» وتتعرف فيها ملامح مونمارتر، إن «شهرزاد» فى نظرى لم تكن يوما قصة

الخيال والبذخ والخرافة كما فهمها الشاعر «كاتول منديس» فى قصيدته... والموسيقى «رمسكى كورساكوف» فى قطعته السانفونية».

«لكنها عندى قصة الفكرة والحقيقة العليا. قصة الروح التى خرجت من المادة، كذلك مونمارتر التى اشتهرت بلهوها وانغماسها فى بؤرة المادة... أى روح تخرج منها كل يوم فياضة بالخلق والإبداع! مونمارتر هى تلك المرأة اللعوب ذات الروح العميقة، هى غانية تنام النهار وتسهر الليل تكشف لعشاقها عن محاسن الحياة وأسرار الحياة».

«هى أيضا كشهرزاد تعمر الليل بأقاصيصها وحكاياتها عن الحب والفن حتى الصباح فتسكت عن الكلام المباح وغير المباح! ولكن شهرزاد قالت ما عندها فى ألف ليلة وليلة، ثم سكتت سكتة الأبد لأن زوجها وعشيقها شهريار كان قد أصغى إليها وانبهر مما سمع فزالت عن عينيه غشاوة الماضى» وأبصر ما فى الحياة وما بعد الحياة من معان وأسرار. وأدرك أنه قبل أن يعرف شهرزاد ما كان إلا طفلا يلهو ويعبث كل ليلة بزوجة يقتلها فى الصباح. فإذا هو مع شهرزاد يرى فى الحياة أشياء أخرى غير مجرد اللهو والعبث.

«إن شهرزاد مربية شهريار ومثقفته فى ألف ليلة وليلة قد صنعت منه رجلا. ثم صيرته بعد ذلك شيئا آخر غير الرجل: ما بعد الرجل».

«مونمارتر كذلك تدخلها طفلا يلهو فتصير رجلا يشعر ويحس، ثم تتركها مخلوقا يتأمل ويفكر... أى تأمل وأى تفكير!».

«شهرزاد قامت بمهمتها فى ألف ليلة وليلة. أما مونمارتر فتقوم بمهمتها فى كل ليلة منذ مئات الأعوام... لا مع رجل واحد. لكن مع رجال كثيرين. لا مع كل إنسان. لكن مع الإنسان الذى يصغى إليها ويجلس بين يديها ويعرف لغتها ويفهم عنها وينفذ إلى روحها السحيقة من خلال ظاهرها اللاهى الماجن المبتذل الخفيف. نعم يا جان. بل إنى أريد أن أقول أكثر من هذا».

(١٥)

ويجاهر الحكيم فى صراحة برأيه القائل: إن مونمارتر ليست المرأة الفاجرة التى توحى باللذة السافلة، وانما هى امرأة لا توحى بغير الطهارة الكاملة:

«أريد أن أقول: إن مونمارتر ليست قط تلك المرأة الفاجرة التى توحى باللذة السافلة، كلا.. إنها فى أعماق نفسها امرأة لا توحى بغير الطهارة الكاملة، أقسم لك يا جان أنى فى حياتى ما أحسست الطهارة العليا الكاملة إلا فى هذا الحى الخليع! هذا، وهل تعرف السبب؟ السبب بسيط: الحرية، تلك الحرية المطلقة فى إتيان أية رذيلة بدون خشية قيد أو تحريم، هذه الإباحة للرذيلة زهدتنى فى الرذيلة نفسها، إن الانسان بطبعه يطلب الممنوع عنه المحرم عليه ويزهد فى المباح».

«إن الملك شهريار الذى استمتع طول حياته السابقة بالنساء وباللذة الجسدية كاد يقتله الملل فصار يقتل كل امرأة بعد ليلة واحدة، حتى جاءته شهرزاد فكشفت له عن اللذة الروحية، فإذا هو ينقلب إنسانا يعشق كل ما هو روح، ويمقت كل ما هو مادة، وإذا هو يصيح كلما عرضت له المادة»:

«شبعت من الأجساد... شبعت من الأجساد!».

«هذه الصيحة انطلقت من فمى يوما... كما انطلقت من فم كل فنان فى مونمارتر».

«أرأيت كيف أن مونمارتر هى حقيقتها مملكة الروح، لا مملكة المادة؟!».

(١٦)

ويصور الحكيم اجتياز محطة مونمارتر على أنه الاستحقاق الأول الذى لا بد منه فى عالم الفكر والفن:

«أكثر من هذا أيضا يا جان: مونمارتر هى النافذة المفتوحة على بيداء الفكر المهلكة».

«هى المحطة التى يبدأ منها كل فنان أو مفكر رحلته المخيفة فى طريق البحث عن الحقيقة العظمى: علمته مونمارتر التفكير فاتجه إليه هازئا بالعطفة غير حافل بأعباء السفر حتى يظفر بالمجهول، ألا تذكر بيكاسو، جان كوكتو، إيريك ساتى، زادكين... إلخ؟ أسماء فى التصوير والشعر والموسيقى والنحت ذهبت مغامرة فى تلك البيداء... لا يعلم أحد أتعود أم لا تعود».

«كذلك شهرزاد أوحت لزوجها بجمال الفكر فخلع عنه العاطفة وانطلق يهيم فى تلك الصحراء خلف سراب العقل والفكر... لا يعلم أحد أيعود هو أيضا أم لا يعود... كل هذا

وشهرزاد باقية كمونمارتر ترمق محبها القادم والراحل بتلك النظرة العميقة، وتلك الابتسامة التى لا يدرك لها كنه».

«وصمت قليلا، ورفعت عينى إلى جان فإذا هو واقف بغير حراك يصغى وكأنه فى حلم، ودخل القهوة رهط من العمال والعاملات يطلب كلٌّ قدحا من القهوة وخبزا صغيرا، فانتبه الخادم وانصرف إليهم مسرعا. ولبست أنا قبعتى ووضعت معطفى فوق منكبى وضعا... وتوجهت إلى حجرتى... أسدل سجفها حتى لا يزعجنى الضوء... وأملأ زجاجة الماء الساخن تحت قدمى خوف البرد... وأنام حتى «مطلع الليل»، شأن الفنانين عشاق مونمارتر المدللين... الخاضعين لهذا الشعار: «حياة الليل وموت النهار».

(١٧)

لعل أخف الذكريات عن «مونمارتر» وحى الفنانين حيث كنيسة الساكركير ما يرويه الدكتور يحيى الجمل عن زيارة أستاذه الحبيب إلى قلبه الدكتور جابر جاد عبد الرحمن لباريس، وحرصه على طقوس معينة فى كل زيارة له إلى باريس:

«مازال يذكر أن الدكتور جابر قال له إنى مسافر غدا إلى القاهرة وأريد الليلة أن أشرب «شوربة بصل» فى مطعم معين فى «مونبارناس»، وأنه يريد أيضا أن يزور «مونمارتر»، وأن تلك بعض طقوسه فى كل زيارة له إلى باريس».

«لم يكن أمامه إلا أن يقول: «حاضر يا سيادة العميد»، وهو واثق أنه لو كان صاحب هذا الطلب شخص آخر غير «جابر جاد» ـ أيا كان موقعه ـ لاعتذر له، بل إنه يظن أنه لو كان جابر جاد نفسه مازال فى منصبه مديرا لجامعة القاهرة لاعتذر له أيضا، ولكنه جابر جاد الذى يحبه، والذى خرج على التقاعد ولم يعد صاحب سلطان، لذلك لم يجد غير أن يقول: «حاضر.. على الرحب والسعة».

«ووصلا إلى باريس.. ومداخل باريس صعبة على غير العارفين، وإن كانت الإشارات لا تترك فرصة للضياع إلا مَنْ كان يصمم على الضياع».

«ودخلا باريس واتجها إلى «مونبارناس» فإذا بهما ـ لحسن حظه ـ يجدان المطعم الذى يريده الدكتور جابر جاد قد أغلق أبوابه، لأن الوقت قد تأخر ولم يكن اليوم هو نهاية الأسبوع

حيث تتأخر ساعات الإغلاق، وقال صاحبنا إنه يعرف مطعما آخر اشتهر عنه أيضا إجادة «شوربة البصل»، ووافق الدكتور جابر على الذهاب إليه، وكان المطعم الآخر أيضا فى منطقة «مونبارناس»، ولكنهما وجداه هو الآخر مغلقا».

«ولم يكن أمامهما إلا أن يذهبا إلى المنزل لقضاء بعض حوائجهما ثم يتجهان بعد ذلك حسب رغبة الدكتور جابر إلى مونمارتر لزيارة كنيسة «الساكركير» أو «القلب المقدس».

«وفى المنزل حاول أن يفتح بعض المعلبات التى بها «شوربة» ويضعها على النار، فى حين جلس الدكتور جابر أمام التليفزيون، ولاحظ هو أن الدكتور جابر بدأ يغفو وبدأ التعب يحل عليه، وكان هو أيضا أكثر تعبا، وقليلا قليلا بدأ صوت الدكتور جابر يرتفع، وأدرك صاحبنا أنه استغرق تماما فى النوم، فاقترب منه قائلا فى مكر ريفى: «سيادة العميد.. سيادة العميد.. قم بنا لنذهب إلى مونمارتر»، وأشاح الدكتور جابر بيده قائلا: «مونمارتر إيه وبتاع إيه.. أنا أريد أن أنام».

«وسر صاحبنا سرورا شديدا وهو يقول له: «طيب قوم» غير ملابسك وادخل السرير».

(١٨)

ونأتى إلى الحى اللاتينى الذى يتكرر الحديث عنه فى الأعمال الأدبية العربية بروتين وإعجاب.

هاهو الأستاذ أحمد الصاوى يتحدث عن الحى اللاتينى وفتياته (على حد تعبيره الذى يقصد به بنات فرنسا الشابات) فيقدم تشخيصه القائل بأن الصراع فى اللاتينى صراع بين العقل والنزوات، وليس صراعًا بين العقل والعواطف، ومن الحق أن هذا التشخيص دقيق وصائب، كما أنه غير مسبوق، بيد أن الأستاذ الصاوى لم يكن من الذين يجيدون استثمار أفكارهم العبقرية بالإكثار من الحديث عنها:

«تسألنى عن الحى اللاتينى وقد سلخت فيه السنين؟».

«إنه حى الحب والحرب! حرب غرام لا هدنة معها ولا سلام، نضال دائم بين العقل والعواطف، كلّا لقد أسرفت!

فليته كان نضالًا بين العواطف والعقل، إذًا لكان أسمى وأعلى وأدعى إلى تخفيف مرارة التجربة. إن للعواطف قدرها وفضلها فى تهذيب النفس، وترويض الفكر، وتخصيب الذهن».

«لكنه نضال بين العقل والنزوات. إن العاطفة شىء آخر بعيد عن تلك الشهوة الطارئة التى لا تأتى حتى ترحل غير مأسوف عليها، بل مأسوفًا منها واسمها النزوة».

«فتياته لا عهد لهن ولا زمام».

(١٩)

ويضرب الأستاذ الصاوى المثل بفتيات شعوب مختلفة يعشن فى الحى اللاتينى، لا بالفتيات الفرنسيات وحدهن:

«وتجد فتيان الصين بعيونهم المنتفخة المشقوقة كأعين الهرة القابعة فى الشمس، قد استأثروا بفتيات معينات جميلات صغيرات يروحون ويغدون معهن طوال أيامهم ولياليهم على جانبى بولفار سان ميشيل، وفى حاناته وأزقته، وأينما دخلت وجدت من ثعلبة الصين آثارًا».

«وتجد أولئك الفتيات اللواتى آثرن أو حكمت عليهن السماء بصحبة «أبناء السماء» كاسفات اللون، عليهن غبرة، كما لو كنّ قد لحقتهنّ من أفيون الصين! ولا عجب فنهارهن ليل، وليل باريس فتاك شتاؤه يهرئ الأبدان، وصيفه ليس له أمان».

«وهؤلاء زنوج «المارتينيك» بلونهم القاتم الشاحب، وهم على هذا اللون المبتذل ذوو عجرفة تراها فى أنفهم الأفطس المرفوع إلى السماء، وهم يصرون على أن يصحبوا الفتيات الشقراوات، وإنه لتناقض يلفت النظر ليصرفه آسفا على أسف، فإن هذا هو الرقيق الأبيض بين السمع والبصر».

«وهذا صينى قد عشش فى رأسه الذباب، وتلوث وجهه الفاقع بالهباب، تراه فلا تشك لحظة فى أنه لا يعرف شيئًا اسمه الماء، وملابسه كشكول عجيب لا أدرى كيف وفق هذا التوفيق فى جمعها، وهو لاريب قد شعر بالأنظار حائمة عليه، وإن لم يعر أحد غير صاحبته التفاتا، فأخرج من جيبه ألوفا عدة من الفرنكات وألقى بها على الخوان وضربها بيده وصاح: «شرابا»، وإن الندل يسرعون متهافتين على خدمة هذا المخمور من أجيال، كأنما سيكيل لهم ما معه من المال!».

(٢٠)

ثم إن الأستاذ الصاوى يقدم النصح المباشر بالطريقة المعهودة فى النصح المباشر، وهى الطريقة التى تدفع إلى ارتكاب المحظور فيقول:

«وكيف يحفل الفتى بهذا كله وهو إذا حفل ببعضه فقل عليه ألف سلام؟!».

«إن هذه الغواية ليست لها غاية ولا نهاية».

«ومن ذا الذى يقف على أفكار «بسكال»، أو على تذكارات شباب «رينان»، أو على أية قصة من قصص «أناتول فرنس» وتلهيه فتاة؟ إنك فى الكتاب تجد نفسك تعرفها وتهيم بها حبا، فى حين أنك لا تجد فى الفتاة غالبًا إلا صورة أميالك (أى: ميولك) الغريزية وهى جزء من نفسك، لكنها جزء من كل.. نفسك عالم.. وأميالك (أى: ميولك) دولة فى هذا العالم!».

(٢١)

على أن الأستاذ أحمد الصاوى محمد مع هذا كله يرى أن الحى اللاتينى يمثل الاختيار الأمثل للشباب كى يسكن فيه، ويختبر قدرته على النجاح فى حياته بإرادته الحرة:

«وقصارى القول : إن هذا الحى هو محك معادن الشباب، فالذى يهرب من الحى اللاتينى يظل جاهلًا نفسه، والذى يقتحم الحى اللاتينى ليس أمامه إلا واحد من اثنين: فإما العمار، وإما الدمار، ولا ثالث لهما، اللهم اكتبنا فى عداد الفائزين!».

(٢٢)

وهذه فقرة من فقرات الدكتور حسين فوزى حين يتحدث عن ذكرياته فى السوربون، وهو يذكر وزيرين رآهما يستقلان المواصلات العامة كعامة الناس:

«ولا أنسى منظر العلامة الرياضى الكبير جان بانليفيه، وكان قد تولى قبل وصولى رئاسة الوزارة ثم تركها، منحدرا على سلم السوربون، حاملا حافظة أوراقه (أى حقيبة يده بلغة عصرنا)، ومتجها إلى محطة الأتوبيس بشارع المدارس، ولا المسيو شيرون، من وزراء المالية

السابقين، وقد شاهدته نازلا من الأتوبيس أمام باب لوكسمبور (مقر مجلس الشيوخ) ليؤدى واجب عضويته بذلك المجلس».

(٢٣)

يروى الدكتور محجوب ثابت قصة سكناه فى الحى اللاتينى بعد أن سكن بعض الوقت فى شارع شاتو بريان وكان قد انتقل إلى الحى اللاتينى لأنه حى الدراسة ولأنه راقته حديقة الكوكسمبورج وقد خطط هو وزميله أن يسكنا عند أسرة «جيرود» التى كان عبد الرحمن باشا سيد أحمد عم زميله مراد باشا سيد أحمد قد سكن عندها من قبل.

«فنزلنا عندها واتخذت غرفتى وطعامى هناك وكانت فى شارع صغير اسمه «شارتريه» فى آخر شارع «دساس» وكنا نرى من شباك غرفتنا شارع المرصد (Av. de l'observatoire) أمام مستشفى الولادة المشهور ترنييه (وهو) المولد (أى طبيب النساء والتوليد) الفرنسى الكبير المنسوب إليه «جفت الولادة» المعروف».

«وكنا قبل ذلك فى منتهى شارع دساس نمرة ١٣٤ حيث كان ينزل المرحوم رشدى باشا أيام كان قاضيا فى المحاكم المختلطة. وما كان أبسطه فى روحاته وجيئاته وما أحلى دعاباته مع الدكتور عثمان غالب حين مر علينا ونحن جلوس بقهوة «سوفليه» ذات مرة على شارع البولفار «سان ميشل» أو «البول ميش» وشارع المدارس الذى به السوربون».

(٢٤)

ونتتقل الآن إلى المقاهى.

وكما أن باريس تبحث لكل يوم عن عيد فإن فى باريس مقهى بين كل مقهى وآخر.

يروى أن عدد المقاهى فى عهد الثورة الفرنسية كان قرابة السبعمائة مقهى، أما فى أربعينيات القرن العشرين فقد ارتفع عددها إلى ثلاثة آلاف مقهى.

وأنت قد تعشق مقهى بعينه أو تضطر إلى آخر تبعًا لموعد حدده لك آخر، لكنك فى كل

الأحيان لابد أن تمر بمقاعد الشانزليزيه على الأقل، والحى اللاتينى، وحيث يلتقى الشارعان اللذان تفوق شهرتهما سعتهما: سان ميشيل، وسان جرمان.

(٢٥)

أما إذا أردت أن ترى المقهى الباريسى على حقيقته فلابد أن تمر بمونمارتر التى أكثرنا من النقل عن توفيق الحكيم فى وصفها ووصف بيئتها وزوارها، لابد أن تمر بمقاهى مونمارتر حيث يلتقى الرسامون والفنانون والبوهيميون، وحيث يلتقى أيضا مَنْ يريدون أن يتأملوا هؤلاء جميعا وهم يحيطون كنيسة الساكركير من كل الجوانب والأرض مختلفة المستويات، والشباب اللاهى جنبا إلى جنب مع الشباب الفنان، والأهل يصطحبون أبناءهم ليرسم لهم الفنانون بورتريهات (رغم أنفهم فى بعض الأحيان) أو إسعادًا لهم (فى أحيان أخرى).

ويروى أن العهد الذهبى لمقاهى هذه المنطقة كان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وقد خلد كثيرون من الفنانين معالم هذه المنطقة وجعلوها بمثابة موضوعات لرسوماتهم، ومن هؤلاء فان جوخ، وبيكاسو، وقد كان هذان الفنانان فيما روى عنهما يستوحيان بعض لوحاتهما من وجوه المارين بهذه المنطقة، ومن ملامح الطبيعة المتقلبة والمتعددة الصورة فى هذا التل وعلى سفوحه.

ويروى أن الفنان مانيه كان يستوحى لوحاته من مرايا مقهى «لاموموس» حتى وصفه أديب فرنسا العظيم زولا بأنه يتقابل مع نفسه.

(٢٦)

أما فى حى «مونبارناس» فيتألق مقهى «الكوبول» الذى كان محل التقاء النخبة من طراز كوكتو وماكس جالوب، ومقهى «كلوزيرودو ليلا»، وفى هذا المقهى تجمع السرياليون وعلى رأسهم بروتون، كما أنه كان المكان المفضل لهنرى جيمس وأرنست هيمنجواى.

(٢٧)

ويشير الدكتور هيكل إلى أن أبناء جيله كانوا يلتقون أيضا فى قهوة دى لا بى، وهى قهوة السلام De La Paix.

وقد كان هذا المقهى الشهير (الذى يتسمى باسمه مقلدون له فى الإسكندرية وغيرها) بمثابة نقطة الارتكاز لعبد الله باشا فكرى ووفد مصر حين زاروا باريس فى طريقهم إلى مؤتمر المستشرقين (١٨٨٩).

وفى مذكرات الدكتور هيكل (١٩١٠) نرى إشارات إلى مقهى فاشت فى منطقة شارع المدارس Rue des ecoles، وهو يذكر أنها كانت ملتقى المصريين فى حى الطلبة.

(٢٨)

وفى مقهى «فلور» أو كافيه «دو فلور» كان سارتر وبوفوار يجلسان فى زاوية دائمة، وقد عرف هذا المقهى أيضًا بألبير كامى وبيكاسو، حتى ليقال: إنه قد انطلقت منه مذاهب العصر الحديث: الرمزية والسوريالية والواقعية الاجتماعية فى الأدب.

(٢٩)

و فى الحى اللاتينى أيضًا لايزال مقهى «ديماجو» قائما وأمامه ساحة يلعب فيها الهواة والعازفون والبهلوانات.

وعندما وصف يحيى حقى الحركة فى باريس وصفًا دقيقًا فإنه لجأ بحاسة الفنان إلى أن يصف المفارقة المقصودة فى أنه جعل ختام زيارته لباريس هو الجلوس على المقهى الباريسى، وأن هذا القرار الذى اتخذه كان فى رأيه حكيمًا، لأنه لو عكس الترتيب وبدأ بما انتهى به، لاتسمت نظرته (كلها) إلى فرنسا (كلها) بالقنوط:

«... حمدت حظى ألا يكون أول شيء أفعله هو آخر شيء فعلته كان فيه الوداع من فرنسا هو جلوسى ـ والزمن صيف ـ على رصيف قهوة (ليه دى ماجو) فى الحى اللاتينى بباريس (قلمى حرن أن يكتب مقهى بدلا من قهوة فاعذرنى)، وإلا لو بدأت به لقلت من ضلالتى: العفاء على فرنسا!».

(٣٠)

ونحن نقرأ اسم مقهى «داركور» فى كثير من المواضع فى كتاب زكى مبارك «ذكريات باريسية».

وقد وصف الأستاذ أحمد الصاوى جلوسه على مقهى داركور فى عيد الاستقلال وما اضطرته إليه الأعياد والحياة الفرنسية من ترك العزلة والحرص على الاندماج فى المجتمع على الرغم من أنه كان يجلس فى ظلال الفيلسوف كانت:

«...جلست آخر الأمر فى «قهوة داركور» حتى لا أكون بمعزل عن السوربون موطنى الروحى وحتى أشاهد الرقص الطائش والموسيقى الجنونية وأثرهما فى تمثال شيخ من شيوخ الحكمة الغابرة الحاضرة الخالدة خلود القدر «أوجست كانت» الشاخص بعينيه الصافيتين الساهيتين، وازدحم الناس ازدحاما وشاركنى فى المنضدة فتاتان من بنات «التاميز» بريطانيتان تزرى ملاحتها بكل ملاحة، لأنها ملاحة عزيزة غير مبتذلة».

(٣١)

ومع أن كثيرين قد يعتقدون أن المقاهى العربية فى باريس جاءت نتيجة من النتائج المباشرة للحقبة النفطية فإننا نجد فى تراثنا ما يدل على أن المقهى العربى فى باريس كان موجودًا من قبل الحقبة النفطية بعشرات السنين.

ومن المقاهى العربية التى تمتعت بصعود أسهمها فى وقت من الأوقات «مقهى بغداد»، وصاحبه من عشاق الشيشة، وهو بطل الجودو العالمى الجزائرى الأصل جمال بوراس.

(٣٢)

وفى تراثنا الأدبى نص جميل وصف به الدكتور زكى مبارك مقهى عربيا كان موجودا على عهده فى نهاية العشرينيات وبدايت الثلاثينيات، وقد تصادف أن أقيم هذا المقهى إلى جوار جامع باريس الذى بنى فى عهد الملك فؤاد.

وقد كان زكى مبارك مشدودًا للمفارقة التى جمعت المقهى إلى الجامع، وظل مكررًا للحديث عن هذه المفارقة وقد وصف زكى مبارك (فى رسالة له سجل أنه كتبها فى ٢٩ سبتمبر ١٩٣٠) هذا المقهى وجوهه ومحيطه وصفًا جميلًا لا نستطيع أن نحرم قارئنا من أن ننقل منه بعض فقرات متفرقة:

«هى قهوة عربية بكل معانى الكلمة، وتذكر القادم عليها بقهوات القاهرة وبغداد والأستانة والقيروان، فحيثما رفعت بصرك فمناظر عربية وإسلامية طريفة لا نقص فيها ولا تحريف، وأنت حين تجلس فى «قهوة الجامع» تروعك الموسيقى الشرقية التى تطالعك بأجمل الألحان، وفى القهوة مغنون بعضهم من تونس، وبعضهم من بغداد، وفيهم مغن من الإسكندرية (هو العواد الشيخ عبده درويش)، وقد سمعت فى الليلة الماضية طائفة من القصائد وطائفة من المواويل والأدوار المصرية والمغربية، وليتك كنت معى لتعرف كيف يحيا ابن هانئ الأندلسى حين يردد المغنى قوله فى ترجيع مملوء بالعطف والحنان:

حسبوا التكحل فى جفونك حلية   تـالله مـــا بأكـفـهـم كحـلــوك
ودعوك نشــوى ما سقوك مدامة   لـمـا تـمايـل عطفـك اتهمـوك»

(٣٣)

ويواصل الدكتور زكى مبارك حديثه الممتع:

«وينجذب الناس إلى قهوة الجامع فى باريس لعدة أسباب، منها القهوة التركية البديعة التى تنقلك إلى عالم غير عالمك فى لطف ساحر أخاذ، ومنها الشاى المنعنع الطريف الذى يذكر بقول السيد عبد العظيم القاياتى:

وعسجد الشاى يجلى   فى كـؤوس من لجين
هــذا يــروق لقلـبى   وذا يــروق لـعينـــى»

«كل ما فى قهوة الجامع جميل، ولا عيب فيها إلا أن اسمها قهوة الجامع، وأنها بالفعل فى جناح من مبانى الجامع... فإذا ركب إنسان سيارة وقال: إلى الجامع، فإن السائق لا يمضى به إلا إلى القهوة، وأكثر السائحين والسائحات لا يفرقون بين الجامع والقهوة، حتى لأخشى أن يظن أكثرهم أنه هكذا تكون مساجد المسلمين، وفى هذا عار وخزى يندى له جبين الرجل الغيور، فما الذى يضر الجماعة الذين يديرون شؤون الجامع لو نقلوا هذه القهوة إلى نقطة بعيدة عنه إن كان لابد لهم من قهوة عربية فى باريس؟».

«كل ما عندهم فى المحافظة على الآداب أن يضعوا لوحة على أركان القهوة فيها هذه العبارة:

«Une tenue tres courte et exigee»

«ومع هذا نجد للعشاق حركات وإشارات ينفر منها الذوق، ويمجها الطبع، ولا تجمل مطلقا بمحل يتصل ببيت من بيوت الله».

«إن باريس تحتمل كل شىء، وأهلها لا يخجلون من شىء، ولكنى لا أحسبهم مع ذلك يفهمون أن من السائغ المقبول أن تتصل بأماكن العبادة أجنحة دنيوية خطرة يجرى فيها اللهو واللعب، مهما قيل: إن الغرض منها شريف، وأنه لا يقع فيها إلا اللهو المباح.

«لقد كنت أصلى فى المسجد ثم أنتقل إلى القهوة متمثلا بقول الشاعر:

ولله منى جانب لا أضيعه ... وللهو منى والخلاعة جانب»

«ولكنى لا أستطيع الصبر على السمعة السيئة التى تطغى بها القهوة على كرامة الجامع».

(٣٤)

وأخيرا فإن خير ختام لهذا الباب يتمثل فى فقرة قصيرة تحمل الإيحاء كله وتلخص الموقف كله، صادفتها فى حديث الأستاذ أحمد الصاوى وهو يتحدث عن الشوارع الكبرى والمقاهى الشهيرة فى هذه المدينة الرائعة، فيقول:

«إن العالم كله فى تلك الشوارع. ولقد حدث أن معلمة روسية ظلت خمسة عشر عاما تدخر من راتبها الضئيل حتى تسافر إلى باريس، ودونت فى مذكرة لها ما لابد لها من رؤيته، فلما جاءت بعد ذلك الزمن الطويل جلست على مقهى فى «الجران بولفار» ورأت الدنيا تسير فى موكب أمامها، وقضت هكذا إجازتها كلها وهى فاغرة فمها دهشة تقول: «هذه هى باريس؟! باريس؟!».

■ ■ ■

أسلوب الكتابة
فى نص الدكتور محمد الجوادى

بقلم الدكتور: كمال إسماعيل
مجلة المنهل السعودية

النص الجوادى فى قطاعه الدال نسق رمزى لغوى راشد، يتعهده عقل رائد فى زهاء فضاء الصفحة بالمراقبة الكافية، والنقد، فى بنائه الخافى، الكامن، الخططى، وذلك المنظور، الظاهر بالخط والشهود. يجتمع ذلك العقل لشتى ذرات الكتابة وركائزها، بداية من الكلمة المفتاح، فالجملة، فالنقطة، أو الفاصلة، أو التركيب، فالفقرة، فالكلام بإجماله، أى من النُصيص الأصغر، إلى أكابر النص، بما يزرع وقفة لتأمل الأسلوب القاطر للأفكار والآراء، والمحقق لمشهد من الوجاهة واللباقة والحضور، كما لمسنا فى سلسلة الأعمال المتنوعة من أعلام العرب، إلى التجربة الذاتية، إلى الرسائل، إلى رموز التاريخ الإسلامى، إلى الرحلات، ثم فى ذروة كتاباته «شمس الأصيل» الصادر منذ خمسة أعوام.

الجديد فى نص الجوادى

يعمل هذا العقل المساند لساحة النص على إكسابه الفسحة الكافية للحوار والجدل والإسهاب، يقصد للشرح بعد الإيجاز باللمح، فالجملة المتجددة الطويلة تراد للفكرة الظمأى إلى الزرع والثبات، والاختزال يجرى لما يقابله فى الواقع من العفو، وغض البصر، أو الإهمال، كما أنه لا ينبعث بداية إلا لما يستأهل شرف الكتابة، وخير الكافة، فهو ينهض بمحو الأمية الثقافية على شتى الأصعدة، وعلى رأسها صعيد الكتابة ذاتها، والجزاف منها، فالكاتب العاقل، أو الذاهل، أو الجاهل بما يكتب، وبأغواره البعيدة، ودرجاته وطبقاته، مفقود وممحو وجوده

من مدونته، وفكرته المقصودة محاصرة، محصنة بمحاضرة دقيقة، وبضوابط لغوية تعصمها من أن تشتبه بأفكار مشتقة، أو مشتتة، أو سطحية مشاعة، تسبح فى عوام الكاتبين، أو تشدها لغيرها فى العقل العام، فمدونته عن رموز النهضة من رجالات السياسية، أو الطب، أو الشريعة، تمتاز بالاستقصاء الشديد، والتحرى، واستقبال الخبر من أمهات الكتب، ومن الآثار الملموسة الوثيقة، ولقد ينتخب العبقرية المنسية الشاردة عن التاريخ ليؤصل لها تاريخا مستحقا، ويضع حسناتها السابقة السلسة، بفعل موزن سالف مكذوب مرحلى، فى ميزان منصف، تحكم كليته الحيدة، والعدالة، والأمانة، ورجم الشائعة، فهو يحترم النقل والعقل، دون المشافهة السوداء، أو الكسلى النؤوم.

التعليم فى النص الجوادى

نلحظ دفترا، أو قلم رصاص، وسبورة خافية، وإصبعا من الحكك، ومحاضرة أستاذ لتلميذ هو القارئ، فى مشترك دلالى من بحر اللغة الذى يغترف منه الناص، دون أن تنفد موارده، والأستاذ ذاته بغزير علمه يتلمذ على القارئ، حين يشركه فى نصف المقولة، أو ربعها، أو ثلثها، دون أن يتأثر بقطار النص وبأعنّته وحده، وبرسوبه فى موقف أو محط، فالنص لا يهدف إلى تسويق اللغة، لأجل اللغة، بل للفائدة التى تغياها الكاتب العربى، فى الجاحظ، والمبرد، والطبرى، ثم طه حسين، والرافعى، وقد سبق أن وضعها هوراس الرومانى مع التسلية بين قوسى الرجاء والمقصد من الكتابة الشعرية.

يقول الدكتور محمد الجوادى: «فى الثانية عشرة تماما، وقبل أن تنقضى ثلاث ساعات على بداية نومى، كنت أستيقظ بسبب ما نسميه الساعة البيولوجية التى فى أجسامنا، هذه الساعة البيولوجية لا تعرف فروق التوقيت، ولا يمكن تحريك عقاربها بهذه السهولة التى ضبطنا بها ساعاتنا».

ترادف العلم والإيمان

إن لب الجدوى فى النص الجوادى يكمن فى جهازه الصياغى الإرسالى، وهو جهاز استقبال أيضا لحقائق الوجود دون استباحة لمرعيات الدين، والأخلاق، والأعراف، فى مغايرة للغرور

العلمى الغربى، الذى ورث المنجزات العربية الإسلامية، وما كاد يبلغ سن الرشد أو يتوهمها فى القرن الثامن عشر، حتى جاوز الرشاد فى خيبات متتالية سعى فيها أن يشاهد القوة الخالقة عن طريق المنظار المقرب للتليسكوب فى إحدى إضحاكيات الغرب الشهيرة.

إن مضمون النص الجوادى يفكك أسطورة العالم المتحضر، وما أسميه الدول المتقدمة، أو قيادة العالم الأحادية العظمى، حين يدخل بنا إلى بناء وحداتها الصغيرة المشكلة لمظهرها المتصالح العام، يقول فى تداول مع القارئ:

«دعنى أتحدث إليك فى قطاع الطب.. تصور لو أن قسما من الأقسام فى أى مستشفى من المستشفيات الأمريكية قد استبعد من أطباء هذا القسم أولئك الأوروبيين والشرقيين والعرب، واللاتينيين (أى القادمين من أمريكا اللاتينية)، أى كل الذين حصلوا على شهادة المعادلة قبل أن ينخرطوا فى الطب الأمريكى، واحصر هؤلاء واستبعدهم من العمل فى هذا المستشفى، فستجد أنك ربما تختزل القسم إلى أقل من نصفه».